رحلة العودة


بسم الله الرحمن الرحيم

د. فراس بن ساسي

رحلة العودة

دار المازري
تونس

الكتاب: رحلة العودة

الكاتب: د. فراس بن ساسي

* * *

الطبعة الأولى

1444 هـ/ 2022م

الترقيم الدولي: 978-9938-960-00-0

14.5 × 21.5 سم/ 96 صفحة

* * *

دار الإمام المازري للنشر والتوزيع

12 نهج السبخة - باب الجزيرة - 1000 - تونس- الجمهورية التونسية

maziribookstore　　dar.maziri gmail.com　　+ 216 25 953 466



زوروا

متجرنا الإلكتروني

www. mazribookstore.tn



الإهداء

إلى والديّ الكريمين

إلى الدّكتور محمّد النّاصر الزعايري خادم أمّه رقيّة

إلى أمّه رقيّة

إلى أساتذتي ومعلّميّ

إلى من تحمّلت كُلفة الطّباعة

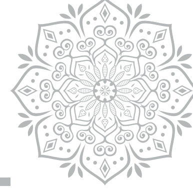
أهدي هذا العمل المتواضع

واللّه أسأله الإخلاص والسّداد...







مقدّمة

الحمد لله ربّ العلمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد،

كثيراً ما حدّثت نفسي أن أكتب لنفسي ما عاينته في محطّات الحياة، لا أقصد سيرة أو توثيق أحداث، وإنّما النّظر في مفاصل الأقدار وخبايا الحياة وأعماق الوجود بكواشف الوحي، فأتحسّس مسار الرّحلة إلى الله، حمولتها، محطّاتها، مثبّطاتها، محفّزاتها.

قدّر الله أن أقدّم في رمضان 1443هـ دروساً لمجموعة من التّونسيّين المقيمين بالخارج، فاخترت أن أسمعهم ما أردت أن أُسمع نفسي وأن أسافر معهم في رحلة إلى الله... رحلة تبدأ بحمولة وتمرّ بمحطّات لتصل إلى الهدف، ومنه تبدأ من جديد.



ورأيت أنّ ما نحتاجه اليوم -في ظلّ المادّيّة العمياء- شيء من ملامسة الرّوح والتّعلّق بالأسباب التي جاء بها الوحي وقد لا ندرك اتّصالها بالنّتائج.

فجمعت الدّروس في كتاب سمّيته «رحلة العودة» أقصد العودة إلى الله، وأودعت فيه ما رأيت أنّ الإنسان يحتاجه في هذا السّفر، غير زاعم أنّي استغرقت كلّ شيء، ولكنّي على الأقل أطمئنّ إلى ما أودعته ممّا أزعم كفايته.

ولئن كان الموضوع قد طُرق مرّات ومرّات، فإنّي أروم بهذه المُحاولة المرافعة عن المشاعر والنّطق بحروف الحياة وجمل الوجود مُستلهماً من نهر الرّوح ومُهتدياً بنور القرآن والسنّة النّبويّة.

وقد تجد فيه ممّا تستغرب تعلّقه بالموضوع، أو ممّا تستشكل فهمه لغموض متعلّق بالمبحث أصلا- وقد يكون بالعبارة-، فحاول ولا تملّ.

سأخاطب نفسي من خلال عقولكم وأرواحكم فلا تتعجّلوا وسافروا معي حتّى نلتقي عند الهدف.

والله أسأله التّوفيق والسّداد.

كتبه/ فراس بن محمّد بن ساسي

تونس في 01 ذي الحجّة 1443هـ

الموافق لـ30 جوان 2022هـ



حمولة العودة...

لا يمكن أن أنسى ذلك الموقف الذي خُطّ بيمين الحياة على صفحة الفؤاد، حينها كنت واقفاً في حديقة المنزل أنتظر مجرّد انقضاء الوقت فحسب حتى سمعت ذاك النداء، أذان صلاة حرّك السّواكن وأجّج العواطف ودفع السّؤال وأرّق صورتي أمامي، فتتالت رسائل القلب بلسان المشاعر، واضطرب ما كُنت أعدّه توازناً إلى حينها، لأنقاد بحبل الضّمير وصوت الله فيّ إلى بداية رحلة ما كانت عُدّتها إلاّ حروفاً تجاوزت غشاء السّمع لتخترق منافذ الفؤاد.

لا أذكر من ذلك الموقف إلاّ ضجيج التّساؤلات المتسابقة في لحظة الذّهول تلك، ثمّ استقرار المُهيمن منها: «لماذا لا أصلّي؟» أو «لماذا لا ألبّي النّداء فأعمر مساجد الله؟».

لم تكن لي عوامل مباشرة في اتّخاذ موقف الذّهاب إلى المسجد إلاّ ذاك النّداء بذاك الصوت الذي لم أهتمّ لجماله، أو على الأقلّ



الجمال الصوتيّ الذي نعرف، وإلاّ فجماله بلغ العُلى بمعيار البصمة في الحياة.

لازلت أذكر الأبواب المُغلّقة التي واجهتني أوّل عهدي بالطّريق، وقد كان الأذان للظّهر وكان المسجد القريب منّي يصلي آخر وقت الصّلاة، ولكن لا بأس، لا خوف علي وأنا في سكرة العاشقين أتلذّذ بألم الصدّ ولوعة الفشل.

لم يكن الأمر غريباً وقتها وأنا في عزلة الاستجابة بمحرّك لا أعلم منه إلاّ أثر نشوته وقوّة دفعه حتّى أعود عبر الطّريق إلى الطّريق، عبر طريق العودة إلى طريق الله، ولكنّ النظر من بعيد بتراخي الزّمن وترقّي العقل وتراكم التّجارب يكشف اللثام عن أسرار الوجود والأرواح.

عندها أردت الاتّصال بدافع الوصال وشوق الإيصال، هذا فقط، بيد أنّ التّبصّر من بعيد جعلني أبحث عميقاً فيما حصل، فإذا بها ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ (الروم: 30) تكلّمت بلغة الحياة ونطقت من عالم الرّوح إلى عالم السّلوك بترجمة الوجود.

لا أذكر كثيرا ما حدث بعد هذا الموقف سوى أنّ شيئاً فيّ قد تغيّر، ووجدتني على طريق لم يحملني عليه سوى الشّوق إليه والنّداء المُحَفّز عليه والقلب المطمئنّ فيه، طريق أسمّيه بعد تكشّفّ المستقبل بطريق العودة، العودة إلى الله.

لعلّ أوّل عبء خامر ذهني كان أوّل حافز دفع قلبي إلى



السّكينة والرّكون، حمل السّنين السّابقة من التّقصير والإسراف الذي صار محرّك الرّدم في مسلك الآثام الماضية، وسائق النّجاة في رحلة الوصال، وجماع ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزّمر: 53).

لا أخفي أنّي كنت وقتها جاهلا بوجود هذه الآية أصلا، ولكنّ معناها قد جذّره فينا ما كُنّا ندرسه ونسمعه ونعيشه عن الإسلام، الأمر الذي أجّج في نفسي راحة كالتي يُحسّها المُحبّ المُخطئ في حقّ المحبوب الحليم المُتجاوز.

أضمر صنيعي أيضا ما أبدت معانيه الأيام والأزمان: أقصد طبيعة البشر، تلك الخلقة المجبولة على النّقص، نعم شعوري بنقصي قوّى شعوري بمراعاة الله لنا وعدله فينا، وزكى نار الشّوق إليه بالثّقة فيه وما انسحب منها على ثقتي في إمكانيّة الوصول، الوصول إلى الله.

لك أن تتصوّر وأنت في حمأة البدايات، والمثبّطات تتربّص بك الدّوائر، وقع استحضار مراعاة الله لضعفك ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النّساء: 28)، وعجلتك ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولا﴾ (الإسراء: 11)، وإقتارك ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ (الإسراء: 100)، وجحودك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: 6)، وظلمك وجهلك ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ (الأحزاب: 72)، وكفرك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ



لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: 34)، ونكرانك ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود: 9 – 10)، وغير ذلك ممّا أثبت من نقائص البشر في كتاب ربّ البشر.

حاول أن تستشعر وقع هذه المراعاة فينا بتخيّل راحتك عندما تكون أستاذا ويُقيّمك مُتفقّد مُحيط بالصّعوبات والعوائق في الوسط المدرسي، أو تلميذا يُقيّمك أستاذ يُدرك صعوبات التّعلّم عندك، بل حاول أن تتذكّر عدم مطالبتك ممن باعك هاتفاً جديدا أن يكون فيه الدّقّة التي لم تكن موجودة حال صنعه وبيعه إذا طلبت حقّ الضّمان حين وقوع مشكلة.

هذه المراعاة كانت كفيلة بالاطمئنان إلى عدل الله ورحمته، ومُحفّزاً لكسر أوّل العوائق على طريق العودة، صنم المثاليّة، ذلك التّفكير الذي نسرف فيه على أنفسنا ونغلو في محق هامش الخطأ فينا حتّى نهدر بشريّتنَا أصلا، نعم هاجس المثاليّة قد يكون سببَّ التّخلّي في بداية الطّريق رفعاً لعلم التّقصير وأحقّيّة الله بالأفضل، وهو في الحقيقة قناع يخفي البخل والعجز والإعراض متمثّلاً المقولة الإنقليزيّة «all or no things»، فمناشدة الكمال في مقابل عبء الآثام يأس قبل الوصول إلى الحاضر، بل سجن الماضي بسلاسل الحاضر، يتأجج بنظرتنا للآخر على أنّه الكمال بناء على الحلقة الوحيدة المُشاعة التي نعرفها من مسلسل حياته المخفيّ.



فقط يطلب الله منك الممكن في حقّك فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)، ولن تُحاسب على قابليّة النّزوة والشّهوة فيك أو حتّى خطئك الذي انسقت فيه وتبت منه بقابليّة التّوبة فيك أيضاً، وانزع في مُستهلّ طريق العودة شوك العجز وسواد الغيب المجهول، بل ثبّت فيك بياضه المعلوم.

لا تحتاج وأنت هنا إلاّ أن تُبنى العلاقة حتّى تكون على الطّريق، علاقة المرء بربّه مهما كان ضعفها، فأن تعود لا يعني أن تمتلئ بحمولة الصّالحين وعبادة المتّقين وزجل تسبيح المسبّحين بقدر ما يتطلّب الحال تمسكاً بحبل الوصال فتحدّد مقصودك وتتملّك مُرادك وتعلم وجهتك، هذا فقط الآن.

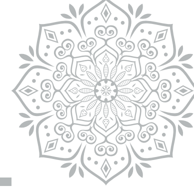
يكفي أن تكون صادقاً حتّى تكون على الطّريق، وحتّى تحقّق التّقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (التوبة: 119) فتعبر إلى محطّات الرّقيّ بمحفّزات العودة...دوافع الأوبة، بدءاً بوحشة القلب التي تقض المضجع مروراً بألم التّقصير الملازم لأوقات الفرح قبل الحُزْنُ وصولا إلى نداء الحقّ ومطالب الفطرة والنّفس فيك، وقبل ذلك كلّه سؤال المعنى الذي ما فتئ ينقض عُرى استقرارك حتّى آلمك وخزه وأفرغ من الدّم بدنك، دمَ الكينونة أقصد.

واعلم أنّ رأس الأمر الصّدق فإنّه أصدق ما في الوجود، وأصدق ما في الصّدق صدقه، فهو الذي يحلّي غيره بما يُحلّي به نفسه



لا ينقص من ذلك شيئا، بل ليس فيه ممّا لا يعطي لغيره شيء، وما تلبّس بشيء إلاّ رفعه وهداه إلى أفضل ما في الدّنيا والآخرة فإنّ «الصدق يهدي إلى البرّ وإنّ البر يهدي إلى الجنّة» (متّفق عليه).

إلى هنا ستحسب لوهلة أنّ الطّريق سهل، وأنّ المطلب قريب فينهدم اطمئنانك بما يعرض لك بحسب حالك من مثبّطات العودة وعوائق الرّجوع، وجماعها فقدان ألم الشّوق وفساد المُؤثّرين والمحيطين وتشوّه المعنى فيك... من هنا سنبدأ رحلة الكشف والتّنقية، وقطع الأغلال ثمّ التّحلية، ونحن في هذا كلّه على الطّريق بصدقنا... بصدقنا فحسب، لذلك فأنت موجود فقط بصدقك، أو قل إن شئت «أنا صادق إذن أنا موجود» نعم موجود في الرّحلة التي نريد، لا في مجرّد الوجود الذي تحقّقه البهيمة حتّى.



انزع القناع...

إنّ أعمق ما يرد على الإنسان سؤال المواقف، ذلك الاستشكال الذي يطرح على العقل في لحظة صفاء الذهن وحسن التصوّر، ويتبدّى بأوضح ما يكون بفعل الحادث الذي صنع الموقف، فيظنّ أنّه لم يسمع مثله واعظاً في الوقت الذي قد تمتلئ حياته بما هو أبلغ، ولكّن معاينة القلب أنقى للنّفس من ملامسة ظاهر الحواس.

الأهمّ من الموقف ذاته تبعاته، والأهم في آثاره أسئلته الحارقة، والأهمّ من كلّ ما سبق ما تكتشف به ذاتك، وهي أوّل محطّات العودة إلى الله...معرفة النّفس أقصد.

لا يمكن لميكانيكيّ أن يصلح عطبا دون تحديد صفته وموضعه وطبيعته، ولو رام إصلاحاً دون كشف وتشخيص لعمّق المشكلة ولأكثر الأعطاب مع هدر الوقت، ومثله إصلاح النفس ومداواة أعطابها، فإنّ أوّل درجات ذلك معرفتها ومعرفة أمراضها.



ستظنّ أنّ الخطب بسيط وأنّ الأمر يسير قبل أن تكوى بنار النفس ذاتها، تلك المجهولة المعلومة، وهنا سنبدأ من سؤالك نفسك «أحقيقيّ أنا؟»، ولن أستغرب استغرابك من السؤال بل وسخريتك حتّى، لذلك حاول أن تصفع نفسك بما يكشف تسرّعك واسأل مجدّدا «هل حياتي حلقات من مسلسل أنا كلّ شخصياته أم أنا فيه أنا وفقط؟».

قد لا تفهم أيضا، لذلك فلنفكّك السؤال ولنبدأ مع نفسك، هل أنت حقيقيّ معك؟ أتعرف نفسك؟ ما تريد وما لا تريد ما يرضيك من نمط الحياة، نقاط ضعفك وقوتك، مشاكلك وأهدافك...

أعرض عمّا سبق وأجب عن سؤال «من أنا؟» .

قد تحسب لوهلة أنّك تعرفك كما لو تخيّرت رقوم مكامنك، حينها ستحسب مجدّدا أنّك ستفهمك ثمّ تصلحك ثمّ تفلح، لكن فقط حينها تدرك أنّك ستكذبك ثمّ تركسك ثمّ فشل المنى وطول الأسى وانمحاق المُبتغى.

اعرف نفسك، أول المحطّات وبداية البدايات ومحرّك النّهايات رغم أنّها الأسهل في ظنّك، فإذا فطنت للحظة فسألت «من أنت؟» فلا تغادر حتى تنسف مثبّطات القلم وتطلق العنان للسان الحقيقة، نعم نعم..... هي حقيقة الطريق لمعرفة ذاتك.

أيهما أصحّ؟ أ لماذا صارت هكذا؟ أم لماذا صرت أراها كذلك؟ من هنا نبدأ... إذا لم تدرك أنّك المتغيّر فأدرك أنّك المُستتر في جملة



الحياة. كلّ شيء أنت حاكمه ومنتجه، ما رأيته في الصغر شجاعا هو الذي تراه اليوم جبانا، وما تظنّه في الماضي عطاء أنت الذي أيقنت الآن سرابه، هو هو لم يتغيّر ولكنك تغيرت، ولا عيب في أن تكون ثمّ تصير، ولكنّ المصيبة أن تظنّ أنّك كنت وبقيت على ما كنت ثم صرت كما كنت، فقط هو تغيّر.

لا شيء يتغيّر سواك، سوى الإنسان وما يحدثه، لذلك فأول سؤال تتلاقفك أمواجه في بحر معرفتك «لماذا صرت أراها كذلك؟» تحاول أن تجيب، قد تفلح وقد تخيب، ولكنّك صوّبت إليك فلا خوف عليك.

لا خوف عليك إذا واصلت المسار وأثقلت العيار ...ثم ماذا؟ ستكذب وتعلم أنّك تكذب، ولن تجد بدّا إلاّ أن تكذب، ثمّ تسلّي النفس بتوبة لا أجل لها يطمئنك إلاّ أنّك تظنّ نفسك المؤجّل. لا يضاهيها كذب الكلام وإن كثر... أن تحسب نفسك النّقي الطاهر، الأمين الآمن، فتكيل الأمور بميزان نظرك وتحاسب الآخر بعين الهتك والجرم لأنّك الذي لا تعرف عنك إلا ما تريد أن تظهره لك... ويقيناً ستصدم يوماً بحقيقتك في مرآة غيرك إلى درجة أنّك ستكره نفسك، ثمّ تعتذر ثمّ تتعذّر... ولا جرم أنّك ستواصل الكذب إذا قُتلت رقابة نفسك، فتكذب إلى درجة أنّك تصدّق كذبك فتصير النموذج الجديد. أنت أنت لم تتغير في الأصل، ولكنّه رجيع كذبك الذي تبدى فأبداك كما لم تبد نفسك لذلك اسأل في مراقي عرفان نفسك «أصادق أنا؟».



دع عنك الآن تغيرك وصورته، والصدق ومحكمته، واسأل عن أثر المجتمع فيك «من الذي يعيش حياتك؟» قد لا تتجاوز حياتك التي ترسمها بنفسك... ماذا؟؟؟؟ للأسف العدم... ثيابك يطرزها الحبيب والأكل يفرضه المريد والسبّ حرفتك من صديق والعيش ليس لك فيه إلاّ أنّك الجسد المطيع، تسير مع القطيع وتظنّ أنّك تتلمس الطريق وأنت في الأصل مداس لثقافة النهيق.

هل أنا أنا؟ أ المال فعل فعلته ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: 20) فسجنت به؟ أم قيدت حياتي إشادة الناس فعبدتها وأنا أستحضر حديث النّبيّ الكريم ﷺ لمّا قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» (مسلم).



أم أن قيود الدنيا فعلت فعلتها فأرهقت بشهواتها مكامن ذاتي وهدرت نفسي ومحقتني وألغت القيم فيّ فكنت من ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ (البقرة: 86) وأصبحت ممن ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ (التوبة: 67).

ستظنّك وصلت في حين أنّك بالكاد بدأت، فاسأل «ماذا أُريد؟» وسترى سخافة الجواب المنمّق بضجيج الحياة، والأصل أن تسأل أوّلا «هل أريد فعلا؟؟؟»، ثم اسأل «لماذا أريد؟؟» وحاول أن لا تستنسخ من غيرك الجواب، ولا تتعجل سؤال ماذا أريد؟ لأنّك قد تصدم فيه بالخيبة التي لا تحيد.

إلى هنا ستصل إلى سؤال المعنى في الأعماق، «لماذا؟»، سؤال الوجود الذي يفرض المصارحة في علاقتك مع الله، هل أؤمن بالله؟ وقبل أن تتعجّل الـ«نعم» اختبر حضور الله في سلوكك، ومحبته في سيرك وإن كنت تعصيه، فكم من عاص رقى بمحبّته.

ثمّ -وأنت هنا- حاول أن تبحث عن صورة الله فيك، وحضوره في عمقك ومكانه في قلبك فقف على كلّ ما تجده حتى تكتمل الصورة جامعاً في كل هذا ما اجترحت فيما مضى من الحياة بعين العبوديّة لا بتعجرف النّدّيّة. ستجد انتهاء عن سرقة وإعانة لمسكين وتصدقا على فقير وبكاء في خلوة ودعاء في كربة وبرا بين عقوق وتورّعا في شهوة، فلا تحقرنّ منها شيئا وأنت تقابلها بظلمك وحيفك وبعدك وتقصيرك، ثمّ فكّ شفرة الدوافع وحفز نفسك بميراث السعي.



من هنا سندرك «من يحرّكك؟» وهو ثاني مراقي التعرف على النفس بعد السؤال عن حقيقتها، وستعي هل أنت «من» ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية: 23) فحرّكتك المتعة وأسرتك براثنها فهدرت منزلتك؟ أم حركك المجتمع فصرت نسخة تعمل كما يعملون متمثلا قول سلفك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ (البقرة: 170) ومنقادا بالهشاشة النفسية والهزيمة الهووية إلى سلطة الثقافة الغالبة والتحكّم من الجماهير؟ أم أنّ محرّكك الله فحافظت على قيمتك وأدركت معنى حياتك وتملّكت حرّيتك؟ نعم حرّيّتك، فعبوديّة الله حريّة، وعبوديّة غيره سجن ورزيّة.

هنا ستظنّك صارَحْتَكَ وانتهيت فأصدمك بأنّ مبلغ فعلك لا يعدو الرّغبة، نعم مجرّد رغبة المصارحة مع شيء من الجديد من نظرك فيك، هذا فقط، وإلاّ فالمصارحة مسارٌ نبدؤه الآن بالتّحذير من إعراضك الذي ستجده، فإنّ أصعب ما على نفسك نفسك، وأصعب ما في ذلك أن تكون أنت المُحاسب فلا تنتظر مساءلة كالتي تصوّبها إلى طائعيك وتثبّتها على مريديك واعلم أنّ أعصى ما يرهقك نفسك.

ستبدأ –وأنت تتّهمك لتعرفك– بالتّهرّب بعد الألم، ليس الألم الذي عهدت وإنّما شعور تلبّس بمبرّرات الهرب وأوجع فكرك فغلّق أبوابك ومنع الغوص فيك ربّما لبخل أو لخوف أو لتشتّت، ولكنّ ستواصل...



سيؤلمك كشف حسابك لا محالة، وما من محاسبة إلاّ وظاهرها الألم لولا منى العواقب ورجاء الإصلاح والاستفادة، فإن أبيت إلاّ الإعراض فغُص في أعماقك كأنّك طفل يُغفر له ما لا يُغفر لغيره، وسامح قبل أن تعلم ما ستعلم حتى تستخرج منك كلّك، متسلّحاً بوعد الله لك ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزّمر: 53).

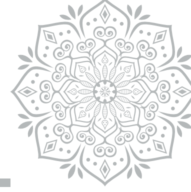
هنا ستحتاج إلى صفاء ونقاء يُساعد على الصّدق والمصارحة، فدونك الجلوس بينك وبين نفسك في خلوة لا جلوة فيها إلاّ على عطاء وعطف ربّ، فإنّها دأب الصّالحين ومنى المريدين وديدن الطّائعين ومبتدأ طريق العائدين وشأن الأنبياء والمتّقين، وتذكّر قرب من «ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» (متّفق عليه) وحال أشرف السّائرين إلى الله سيّدنا محمّد ﷺ في اعتكافه الليالي ذوات العدد قبل البعثة وبعدها.

كلّ إنسان –مع ما فيه من ميل المخالطة والاجتماع– محتاج للحظات يعتق فيها وبها نفسه من أسر المحيطين وأعين المراقبين وضجيج الحياة، فيُزيل من أمامه ما يشدّه إلى عيش واقعه دون النّظر فيه، ويخلو بالقريبة البعيدة، نفسك، تلك الغريبة بوحشة الإعراض عنها وأنت تتعرّف إليها بما يكشفه لك غيرها فقط. هنا فقط ستنعتق من المؤثّرات وستشعر بإرهاصات الصّدق بعيداً عن إكراهات الحياة، لذلك قالوا «ابتعد قليلا كي ترى أفضل». هكذا فقط تستطيع أن تكتشف رسائل الله إليك من خلال فعل أقداره فيك.



ثمّ احذر وأنت تتوغّل في المصارحة الصّدق المُشوّه، أن تكذب بما يوحي لنفسك صدقك، وأشدّه أن تصدّق كذبك فتعجز عن كشف مجرّد وجود الكذب، لا أن تقف على مواطنه حتّى، فتتشبه بـ«أشعب» الذي كان يجتمع به الصّبيان فيضجرونه حتى قال لهم يوماً إنّ في دار فلان عُرساً، فانطلقوا مارّين على كلّ القرية مخبرينهم بما أشاعه فيهم أشعب، فلمّا رأى صاحب الكذبة سعي النّاس للعرس، غرّه طمعه فأسدل على بصيرة القلب غشاء الغباء وبتر الذّاكرة وتتبّع الصّدفة وأمل الأموات في الحياة فتبعهم إلى العرس قائلاً «لعلّه يكون حقّاً» وهو صاحب الكذبة.

من هنا نعرف أنّ النّفس قد تقرّب محارات العقول ونوادر الأقدار ومحالات الوقائع فقط لترتاح، ولا غرابة أن تصّدق ما تعلم كذبه لتسكت صوت الضّمير فيها، وترفع ألم المُحاسبة إلى أن تنسى أنّه كذب أصلاً، فتجد وأنت تفتّش فيك ظلما مُغلّفاً بطلب الحقّ، وطمعا مُنمّقاً بالمعاملة بالمثل، وتجاوزاً متزيّناً بأحقّيّة الاستباحة، وحسداً متقنّعاً بغبطة، وتعلّقاً تحت رداء الحبّ وكبراً تراه ذكاء وإدماناً تغطّيه بظنّ التّحكّم وكذبة التّجربة وضعفا تخفيه بعدائك بدافع حمايتك. فلا تبحث فيما استقرّ، وغص في ركام ما هدمت وأنت تصارح نفسك ببحثك عنك بخارطة الصّدق وكواشف الإخلاص.



ليست صدفة...

من العاديّ عندك أن تنظر فيك فلا ترى ما يدعو إلى الوقوف، ثمّ تعود فلا تجد أيضا فتقتنع، والحال أنّك أوتيت من قبل تفكّرك وغوصك في أسرار القدر وتفتيشك عن رسائل الله، فنسفت حياتك باسم الحياة، وأضفيت عليها معاني الهدر واللامبالاة، وقيم التّجاوز دون النّظر، حتّى صار البخل في النّظر فيك صنعتك، والغفلة عمّا يحصل في مسارك ديدنك، ولتسكت مناجاة القلب ملأت الفراغ بما سمّيته «صدفة» قاتلا بها كُلّ جمال أرادك الله فيه، وكلّ رسالة تميّزت بها، حتّى صرت مداس المادّة ومصرف «قدر الإنسان»، ذلك القدر الذي يفرضه البشر على غيرهم، ويرضاه من ألغى عمق قدر الله فيه، والذي به نفهم الحياة.

من هنا نقلع في رحلتنا إلى محطّة معرفة الحياة، تلك الأرض التي أودعها الله قوانينه، وأطلعنا على ما تستقيم به، فمتى ما قصر



إدراكنا لكنهها أضعنا البوصلة ولو أحطنا بأنفسنا علماً، وحتّى أنزل بي من سماء العتاب والتنظير إلى بيداء التّمثّل والعمل، أسوق لكم ما لم تخل منه حياة، نعم قد نختلف في الصّور طرائق قدداً، ولكنّ القانون واحد: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49).

صديق عزيز يحدّثني عن تعلّقه بفتاة وطلبه وصالها فقوبل بإعراضها، مرّة ومرّة، وتنقضي السّنون غير مغفل دعاء الله، ليقدّر الله يوماً ما به أستدلّ في هذا المقام، ينزل من منزله ليركب مع أخيه في السّيّارة، فيُقَدّر أن ينسى الأخ شيئا ما استوجب من الصّديق الصّعود إلى المنزل مرّة أخرى، فما إن خرج من الباب عائداً إلى السّيّارة حتّى تعانق بصره مع من أحبّ، والتقى بمن لو تواعدا لاختلفا في الميعاد.

أن يجتمعا في نفس اللحظة أمر غريب، ولكنّ الأغرب أن ينسى الأخ شيئا وأن يصعد الصّديق بدلا عنه وأن يُقرَّرَ خروج في ذلك الوقت وأن تمرّ البنت من ذلك الطّريق وأن تتوافق سرعات الخُطى لتلبّي نداء القلوب، ثمّ كُسر شيء من الجليد فلانت القلوب لاحقاً وجمع الله بينهما في خير.

إجابة البخيل عن مساءلة الموقف لا تعدو «الصّدفة»، ذلك الانعكاس لظلمة القلوب وغشاوة الحياة وانمحاق الكيان الإنسانيّ المفارق لغيره من الكائنات والجمادات، وهو أمر مُطّرد في كلّ وضعيّة مماثلة نعيشها، ولعلّك –وأنت تقرأ ما سبق– استحضرت



بعضاً ممّا أوقفك أو أعدت النّظر فيما قادك بخل النّظر وموات البصيرة والثّقافة الغالبة إلى تجاوزه دون نظر، فحاول أن تبدأ من رفع الصّدفة عن كلّ ما حصل، واعلم أنّها «كلمة خالية من المعنى اخترعها جهلنا»، وإلاّ فقوانين الحياة مضبوطة، والمؤثّرات فيها واضحة مطّردة والمجّانيّة مُلغاة.

فإذا طلبت المدد من القرآن بشأن الصدفة، فدونك ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49) و﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: 2) و﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرّعد: 8) و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطّلاق: 3) وغيرها من الآيات التي بها تتلمّس طريق الحياة ومسلك السّير الرّشيد إلى الله في ظلمة التّوقّعات والمجّانيّة واللامبالاة والتّطبيع مع سطحيّة النّظر وسذاجة العيش. فبها تدرك الإلحاح الرّبّانيّ على استغراق التّقدير والحكمة كلّ شيء بهذا العموم الدّاحض لكلّ صدفة يفرضها جهلنا.

حاول الآن أن تنزّل قناعة التّقدير الإلهي الشّامل على حياتك بتصويرها على شكل شبكة أسباب واحتمالات متعدّدة ومختلفة ومترابطة ومتّسعة جدّاً، ثمّ ضع نفسك على هذه الشّبكة متوسّلا بخصيصة الإختيار وحرّيّة التّوجّه، وانظر إلى ما ستنتهي إليه: تحكّم الإنسان في مصيره ولولا الاختيار لبطل الحساب، وتشابك الأسباب بما قد يوحي بعدم التّعلّق بين الفعل والقدر، وعدم الإحاطة بحتميّات الاقتضاء بين السّبب والنّتيجة في كثير من الأمور لمحدودية العلم وخيانة الذّاكرة وقصور الانتباه لبسيط الوقائع قبل



مهمّها، وأنّ كلّ ما يعرض للإنسان إنّما هو من مخرجات خيارات كان هو صاحبها، وقد لا يُحيط بها كلّها وهذا لا يعني انعدامها، إذ عدم العلم لا يعني العلم بالعدم. فإن راودك شكّ فيما سبق فراجع دقّة مسارك واطّراد قوانين الحياة عندك وكثرة التّوافقات التي قد تعجز الرّياضيّات عن تبريرها حتّى فستدرك ورطتك.

الورطة هنا أنّ نظرك لطبيعة الحياة أرهق سعيك إلى نفسك وإلى الله، وصنع المسكّن والأوهام ليُخفت صوت الفطرة المُنبه من غريب ما تسمّيه صُدفاً، فتصير متعاملا مع عدد من الأحداث غير المُتعدّية ملغيا ما يكتنفها من الرّسائل والعبر، ومُبتعداً عن فحص ما فيها من الإرشاد والنّصح، فإذا كانت قصص السّابقين ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف: 111)، فكيف تمنع الاعتبار بأعظم القصص في حياتك رغم معاصرتها ومدافعتها للظّهور بك وفيك وأمامك كلّ حين، فضلا عن كونها أنت.

هنا قف في لحظة عرض لكواليس الحياة، واختبر تشابكات الأسباب والأقدار، ثمّ ارجع خطوة إلى الوراء مُقلّبا فؤادك في قدر الله قبل حصوله، فاختر من الأسباب ما تنال به وعد الله لك ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (النّحل: 97)، وتأكّد أنّ الوحي كشف عن غموض الأسباب وألغاز الأقدار وقوانين التّاريخ وسنن الحياة، فلا تستلبنّك مادّيّة العصر وآليّة الإنسان المُعاصر عن الأسباب غير المادّيّة والمُؤثّرات المخفيّة فتخمد نار الشّوق فيك،



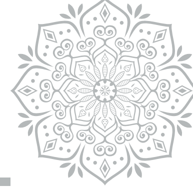
وتقتل كلّ بحث عن طريق الله، وتذكّر أنّ «صنائع المعروف تقي مصارع السّوء» (الحاكم) ولو غابت عنك بين ما سبق الرّوابط، ومثلها «إنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» (متّفق عليه) و«ما فتح عبد باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر» (أحمد) و«لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثمّ تدعونه فلا يستجاب لكم» (التّرمذي) و«أنّ النّصر مع الصّبر» (أحمد) و«ما نقض قوم العهد إلاّ كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحشة في قوم قطّ إلاّ سلّط الله عليهم الموت ولا منع قوم الزّكاة إلاّ حبس الله عنهم القطر» (الحاكم) و«من سرّه أن يبسط له رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه» (البخاري) و«من لا يرحم لا يُرحم» (متّفق عليه) و«الحلف منفعة للسلعة ممحقة للبركة» (متّفق عليه) وغيرها من الأحاديث التي قد تعجز عن تحقيق العلاقة بين العمل ونتائجه، والسّبب ومقتضياتها، ولكنّك ستسدّ فراغ الجهل وتزيح فكرة الصّدفة لو استحضرت أنّه كشف لخبايا الوجود ممّن صنعه وقدّره، لذلك كان من أسباب أحقّيّة الله بالعبادة التّقدير والعلم والخلق، فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ (الأعلى: 1-4).

ستجد ورطتك أيضا -بسبب ملء فراغات القدر بحشو الصّدفة- في ترك البحث عن الله والتّقرّب إليه ودعائه لمجرّد أنّه لا يهمّ، فما فائدة إله ترقّع الصّدفة أقداره لترفع عن خلقه نظامه، إلى أن



تصل في منتهى السّير بكواشف الصّدفة تلك إلى عبادة العبث وترك النّظر وعدم التّصويب إلى طريق العودة، وأفضل ما في هذا الحال أن تنتظر صدقة الصّدفة فتعود، حينها سيتزيّن لك دور الضّحيّة بتغييب الأسباب التي تعدمها لمجرّد جهلك بها، وستصنع إله الحظّ الذي يقتل فيك أيّ حافز، حتّى حافز الفشل، لتجد نفسك تُعاش ولا تعيش، يعيش فيك الحظّ والصّدفة فتنطق حركاتك وسكناتك بما هو أشدّ من الجنون.

لذلك واصل السّير بعين الله التي كشف لك بها أسرار الوجود، وأحل جهلك بالأقدار على الله فإنّه أعلم بها، ولا تحقرنّ من المعروف شيئاً، وانتظر أثر المعصية في دابّتك ونفسك وأهلك كما قال بعض الصّالحين، ولا تترك الأمر لجهلك، أقصد الصّدفة، وإنّما تقدّم بنور ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النّساء: 79)، ولا تنتظر هداية الصّدف المهدورة، وعطايا الجهل المقنّعة المذمومة، وكن أنت الممسك بمقود العودة إلى الله، فإنّك ما صوّبت إليه إلاّ صوّب إليك وأجزل لك في العطيّة، وما استشعرت فعل أقداره فيك ونسبتها إليه، إلاّ ملكتك السّكينة والاطمئنان، وركنت إلى الذي لا يخيب راجيه ولا يذلّ مواليه.



لغز العدالة...

لي قريبة بلغت من العمر خمسة وعشرين، ابتلاها الله بشلل شبه كلّيّ منعها من التّحكّم في الحركة والكلام، فكانت على هذا الحال مذ ولادتها، ولعلّ ما ألفيته من وضعها رفع عنّي النّظر من غير الطّريق، طريق الإلف أعني، فكانت لا تتجاوز عندي أنّها مريضة وكفى، وبقيت على هذا الوضع إلى أن صادفت لحظة تأمّل كانت هي بطلتها، عندما أخذت في البكاء لمجرّد أنّ أباها غيّر القناة التي تتابعها على التّلفاز، فما إن استجاب لطلبها وأعاد لها ما تريد حتّى نظرت إليّ تلك النّظرة، نظرة سمعت عنها حتّى رأيتها، أن يكون لعينك ثغرٌ يضحك، فتتداخل أدوار الحواس وتنوب إحداها البقيّة حتّى أنّك لا تحتاج من البيان سواها، نظرة كانت لساناً يلهج بالفرح ودموعاً تنطق بالسّعادة وقلبا يغيّر فيك ما لا تستطيع إلاّ أن تحسّه.



شعرت حينها أنّي لا أعرف السّعادة أمامها، وغبطتها على حال قد لا أصله ولو حقّقت أضعاف ما حقّقت، فكأنّ قوانين عالمها غير قوانين عالمي، بل العالم غير العالم أصلا. هنا تراجعت خطوة للوراء أقلّب الأسباب عليّ أصل حلقة تجاوزتها، فإذا الأمر على ما أدركت أوّلاً، مجرّد قناة أسعدتها رغم شللها وخفّة ذات يدها وقلّة حيلتها وانعدام السّبل أمامها، على الأقل حسب ما أرى، ولكنّ الأمر على غير ما أظنّ، ومن هنا نبدأ...

جعل الله لكلّ خلق عالماً يعيشه، فيه مُؤثّراته ورهاناته وقوانينه، وما الحياة التي نعرف إلاّ تقاطع حيوات مختلفة جدّاً إلى حدّ التّباين، مع ما فيها من اطّراد ثوابت لا تتخلّف، فما يسعدك قد يحزن غيرك، وما تتمنّاه قد يألفه الآخر، وما تظنّه هيّناً هو في حياة غيرك عظيم، وهكذا... وقد يُقدّر الله بتقاطع الحيوات تلك إتمام حقّك من العدل على يد من لا يعني له ذلك الفعل شيئا، وكم رأينا من مُتَصدّق يُصوب تُجاه من لا يعرفه فيسوق له من المال ما يسد حاجته، أو قمامة تلقيها يجد فيها الفقير حاجته، ليست صُدفة ولا عبثاً، وإنما هو عدل الله بتسخير الأسباب لينال المُستحقّ جزاءه وكذا الظّالم، فلا تظنّن أن الحياة التي تَرَى، أو أن مُنتهى العدل الذي تظنّ، فإنّ الحياة أعقد ممّا تُدرك، ومجرّد إحصاء الأسباب فيها عصيّ عليك فما بالك برصد تشابكاتها والحكمة من ذلك، ولا تُحاسبنّ حياة غيرك بما تراه أو ما تعيشه، وابتعد قليلا كي تحكم أفضل، أو أعرض فلست أهلا لمحاكمة الحياة وأنت جزء تجهل تمام أجزائها.



الأعجب من هذا أنّ الفرح واحد والسّعادة واحدة والجوع واحد والشّبع واحد والحزن واحد والألم واحد والحبّ واحد والنّشوة واحدة... ولكنّ الأسباب عديدة، فلا ظلم في اختلافها إذا ما تشابهت مخرجاتها، ففرح الفقير بكسرة خبز ليس أدنى من فرح الغني بآلاف المليارات، هو هو ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (فصّلت: 46)، وهو تمام العدل.

هكذا نظر، قد يكشف للإنسان كنوز العيش ويقيه منهكات الإيمان وهو في طريق العودة إلى الله، ذلك الطّريق الذي يجب أن تُسيّجه قناعتك بعدل الله ضماناً للوصول مع ما قد يطرأ من المُثبّطات والصّوارف.

نعم... نعم، الصّوارف التي تسبّب نكوصك على الأعقاب، والتي لا تصمد أمامها إلاّ بسلاح العدل، الثّقة في عدل الله مهما تبدّى لك من ظلم الأقدار حسب ظنّك، فإنّ أردى ما يوبق الإنسان في علاقته بالله، محاكمة المخلوق للخالق، والرّسول ﷺ يحذر منها قائلا «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك» (أحمد)، وكأنّه يُحيلك على جهلك وقلّة علمك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ (الإسراء: 85)، ويُخبرك أنّ مثل من يحاسب أقدار الله كمثل من حكم على شخصيّات مسلسل بمجرّد النّظر في الحلقة الأخيرة من جزء من أجزائه أيضاً، أو كمثل قاض حاكم متّهماً بملف مبتور.

إنّ مثل علم الإنسان في علم الله كمثل قطرة في بحر لا يُرى



منتهاه، فما لنا نحاكم الأقدار ونحن نجهل حيثيّات حاضرنا ومستقبل أيّامنا ودقائق ماضينا ولو عشناها؟ وكيف لنا أن نصارع حكمة من هو أحكم الحاكمين لمجرّد فشل؟ نعم الفشل الذي لا تراه إلاّ بسطحيّتك، فارجع البصر مقلّباً مكامن الفشل بقراءة ما بين سطور الحياة وسترى الفشل النّجاح، الفشل الآفاق التي تفتح والاختيارات الجديدة التي تعرض، الفشل التجربة التي ترصد، الفشل الألم الرّقيب في لاحق الحياة، الفشل الخريطة التي تبحث بها عن الصّحيح بين ركام الزّور والبهتان، الفشل الانتصار للقدر الإلهي على الرّغبة الإنسانيّة، الفشل الحياة بقواعد جديدة، الفشل اكتشاف الذّات، الفشل البناء للنّفس، الفشل المدرسة... هنا توجد عدالة الله فيك ولو بالفشل فلا تتكبّر.

واحرص أن لا تكون ممّن يُؤنسن ربّه ويُشيّئه فيصيّره إنساناً طيّباً وجب عليه القيام بما يراه الإنسان جيّداً، أو يصيّره صندوق طلبات يستجيب له ما يريد وإلاّ يُتّهم، فليس الله كذلك، قد يعدل فيك بفشلك وجهلك ونسيانك قبل أن يعدل فيك بعطاياه، بل هي العطايا. فانظر كم لك من موقف نجّاك الجهل فيه، جهل بسيّء الأماكن ورديء الخصال، وكم ساعدك النّسيان على تجاوز الآلام فلم يبق لك من مرير سابق الأيام إلا العبر التي قد لا تنالها بمتعة الأزمان.

وإيّاك أن تركس نفسك في باب القدر فتكثر المقارنة مع غيرك، تقارن بين ما تحيط به علماً من حياتك وما لا تعلم إلا بعضه من حياة غيرك ثمّ تتّهم الله، وأنت تجهل حقيقة أرزاق الله للبشر: فالصّحّة



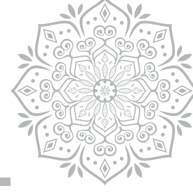
رزق والأمّ رزق والأب رزق والأصحاب رزق والمال رزق والبنون رزق والعلم رزق والزّوجة رزق وحبّ النّاس رزق والجمال رزق، لذلك لا تُحاول أن تدخل بيداء المُقارنة بعُدّة الفقير فإنّ ضعف اليقين في عدل الله سبيل للبعد عنه وفقدان الشّعور بالأمان حتّى ينمو فيك الخوف من النّاس ومن الزّمان وحتّى من نفسك، فليست عدالة الله تحميك، ولست تأخذ ما تستحقّ حسب ظنّك فلا راحة ترضيك، ولا اللهَ تتقرّب إليه بل هو المُتّهم عندك فلا أحد عندك حاميك، وعندها ستبحث عن أمان وهمي فتجده في فكر أو شخص أو مكان، وتُؤسر به فيتوالى الشّرخ فيك، ويضعف الرّضا وينمو الحقد والحسد وتضيع القناعة ويُقضّ المضجع فلا طُمأنينة ولا تعلّق إلاّ بالأسباب وبها تُعدم.

فإذا طلبت العودة الصّادقة فعليك باليقين في عدل الله فـ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (فصّلت: 46) وقد ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ (الأنعام: 54)، وهو الذي قال «حرّمت الظّلم عل نفسي وجعلته بينكم مُحَرَّماً فلا تظالموا» (مسلم)، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ (هود: 117) فكلّ ما يعرض لك من أقداره يجب أن يحملك على مُحاكمة مسارك والنّظر في حياتك فإنّه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت: 40). فإن أبيت إلاّ محاسبة الله فوفّر مقتضياتها، نعم، العدل المطلق لا يكون إلاّ بالعلم المُطلق، فمن رام محاسبة العدل المطلق فعليه بعلم مطلق، فإن عجز إدراكك فاعلم أنّك قد تصيب



بعلمك ظلماً تحسبه جهلاً وانتظر برهان الزّمان ولاحق الأيام، أو ابحث في تاريخ الإنسان فسترى سنناً لا تتخلّف عن حياة الأنام، وأعرف أنّه أينما كان قدر الله فثمّ العدل وإن كنت تراه شرّا، فقد ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: 216). ثمّ افرض أنّ ما وقع شرٌّ، فليس الشّر -مهما عظم- محض شرّ وإن سُمّي كذلك، بل الخير فيه قد يتجاوز الشر أصلا، وهو داخل في الخير بالنّظر التّام إلى كامل مسلسل الحياة لا إلى مجرّد ما حاكمت، هذا مع ما تغفله من وجود الحياة الآخرة التي يقضى فيها بين الخلائق وتجزى كُلّ نفس ما كسبت وينال فيها الإنسان ما يستحقّ بتمام عدل الله ورحمته، ويحاسب حساباً نسبيّاً بالنّظر إلى ما كُلّف به وقدرته والمُؤثّرات والحيثيّات التي قد تعرض له ولا تعرض لغيره.

من هنا يواصل الإنسان في رحلته إلى الله بفكرة العدل، فيرضى بالأقدار ويرفع عنه عبء المحاسبة بالتّسليم للملك الدّيّان، ويتفاءل بما هو في يد العزيز الرّحمن، بل ويتقوّى بعدل الله فيتوكّل عليه ويدرك أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه وأنّ ما أخطأه لم يكن ليُصيبه، فيُقبل على الله بالشّكر ويطمئنّ بالقناعة ويثق فيه، فما انكشف له من غامض الأقدار زاده يقيناً، وما خفي عنه سلّمه لله فتيقّن عدله فزاده إيماناً ويقيناً وتسليماً.



جلمود... ثم قست قلوبهم

هنا سنبكي معاً على حياة نريد استردادها، أعني حياة القلوب، عندما كانت تعظنا النار فننتهي، وتُرغبنا الجنة فنسعى، وتفيض العينان في سواد الليل والناس نيام فنبكي، وتُرهبنا حُدود الله فنتورع حتى نترك ما نشتهي، ونغض الأبصار حتى نجد في النفس الحلاوة التي نبتغي، ونسجد في الصلاة لا نريد أن نقوم حتى نُتم من دُر الدُعاء ما نصطفي، ونذكر رسول الله ﷺ فنقتفي.

وقتها كُنا نُنكر ما صرنا اليوم نجترحه، وننتهي عما أضحينا الآن نقترفه، ونتلّذذ بما صرنا اليوم فقط نستهلكه.

دموع الصلاة ورأفة القلوب ورقة الأرواح وطيبة النفوس ورقابة الله وصفاء الفؤاد، كُلّها أزيحت فحلّ مكانها القسوة، وصرنا أقسى من جلمود صخر حطه السيل من عليّ.

كُلنا نال في سيرته نصيباً من حياة القلوب، ذلك النور الذي



تلين له الأركان وتعمل بمقتضاه الأفئدة فتنطق مُطمئنة بصوت الله فيها، ونحن في كُل حين نميل إلى استجلابه وطلبه ولكن...

ولكن ماذا؟ قسوة جثت على القلوب فحقّ علينا قول ربّنا ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: 74)، وطفت على سطح الأرواح غشاوة منعت تلبية النّداء وحرمتنا مُتعة العيش في ذمّة الله، لا ندري ما حصل ولكنّنا نشعر بموت ما كُنّا نستشعر به الذّنب في حقّ الله، بل لعلنا نسير السّير الحثيث لاجتراحه.

سنفتّش في السّبب ثمّ ندرك أنّ الخطب خطب القلوب، وخطبها عسير، تلك المُضغة التي تُحرّك الجوارح والأبدان فإذا صلحت صلح الجسد كُلّه وإذا فسدت فسد الجسد كُلّه، وداء القلب من غذائه، فمتى ما نهل من طيّب الأخلاق وصافي الأعمال والطّاعات كان ليّناً حسناً، ومتى كَدّرته بسيء الآثام وكثرة المعاصي والمنكرات صيّرته بسواد كالكوز مجخّياً، مُتناسياً في هذا كُلّه فُرصة الاستغفار والتّوبة، تلك الورقة المُنقذة من طريق السّير إلى الوراء، تماما كما أخبر سيّد الأنام لمّاَ قال: «إنّ المُؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب، ونزع، واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت حتّى يُغلّف بها القلب، فذلك الرّان الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ (المطففين: 14) (التّرمذي).

فالقلب وعاء الأعمال ومرآتها، وهو مصدر صلاحها وفسادها، وحياة الأرواح ومواتها، لذلك كان «الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا



إلى صوركم وإنّما ينظر إلى قلوبكم» (مسلم)، فإذا نظر إلى هكذا قلب فما الذي سيجد؟ غشاوة تُكفّنه وأغلالاً عن الخير تحبسه وجفافاً من الدّموع يملكُهُ.

فلنتقهقر إلى الوراء خطوة، ولنسأل عن القسوة كيف حلّت؟ ما طريقها إلينا حتّى ملكتنا فجثت على الأفئدة وغشيتها؟ وسُرعان ما تتقوّى بعض الأنفاس الأخيرة فينا فتجتمع على جواب واحد: «إلف المعصية»، تلك المُداومة التي قتلت الشعور وشكّكت الرّقيب وفتنته حتّى صيّرت المعصية غذاء تُدمنه القلوب، ولازلنا نذكر أوّل عهدنا ببعض المعاصي، عندما تبكي القلوب وتذرف العيون وتضيق بشؤم الفعل الصّدور فلا تسعنا الحياة ثمّ نحيى بذلك الألم على أمل التّوبة ونُسكت صوت الضّمير، فإذا ما أعدنا الكّرة وجدّدنا المعصية أصابنا أدنى ممّا حصل في أوّل مرّة بفعل الإلف فينا، حتّى نصل إلى تموّت الشّعور وانعدام الإنكار بما يقلب موازين النّفس ويُحرّف بوصلتها لتنكر ما كانت تعرف وتعرف ما كانت تُنكر، فهذا مسار القلوب إلى قسوتها، ولا تظنّن أنّها في هذا الطّريق خالية من وعظ النّفس ولومها، ولكنّك في كُلّ مرّة تتجاوزها بتلك الحركة، أقصد سرعة اتّخاذ موقف المعصية لتمنع المحاججة بينك وبين نفسك أصلا، وتجدك مُتجاهلاً لأيّ تفكير يُزعج صفو تمتّعك بجمال المعصية.

عندها ينعدم التّلذذ ويُنسى الخشوع، وما تذكير الله في قوله ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الحديد: 16) إلاّ همس في أذن منتصح بأوّل طريق الزّيغ والتّراجع، ثمّ تتوالى الرّسائل



لتردّك فإذا بها تزيدك زيغاً كحال من قيل فيهم ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 43)، حينها تصير وعاء لما يلقي الشيطان، فتنمحق اللذة وتترك المُحاسبة وتهون على الله حتّى تستبيح الذّنوب وعبادة الأنا، لتصل إلى مرحلة اللعنة ﴿لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ (المائدة: 13).

قد تظنّ العودة قريبة، وتُمنّي النّفس مرّة ومرّة ومرّة حتّى يطول الأمد وتألف الطّريق، طريق المعصية، فتردّ النّصيحة وتتضجّر من الطّاعة وتتشبّث بالدّنيا وتقطع مع إنكار المُنكر، ولذلك جعل الله الخطب عظيماً بقوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ (الزّمر: 22).

وصيّر الله عُقوبة القلوب القسوة، فلا عقوبة أشدّ منها، بل لا حياة بعدها: تُطيع فلا تتلمّس الحلاوة، وتعصي فتُحسّ في النّفس طراوة، وتقف لتنظر فيك فلا ترى، فتسير إلى الوراء، وتقبل على حياة الضّياع، تتّبع المتاع، لا تريد أن تُحسّ أبداً، بل تفعل فقط لتنهر الحريم وتُلبّي عذاب الهوى الأليم، وهذا أعظم البلاء وصاحبه أحوج للعزاء، فأيّ عُقوبة أعظم من أن يُنزع فاعلها الرّحمة فلا يعطف على نفسه ولا يشفق على غيره ولا يذكر ربّه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزّمر: 22).

وأقسى ما في القسوة البعد عن الله، فهي منتهاه بذلك الصّنم الذي يجثو على القلب فلا يطلب عودة بل يزيد بعداً، وبذلك القتل



الذي يستبيح الشعور بالبعد أصلا فتضطرب معه مقاييس القلوب ويخفى على المُبتلى به البعد وحدوده فلا يسأل رجوعا ولا يطلب أوبة.

ستظنّ أنّ الوضع صعب ولست مُخطئاً، ولكنّ الخطأ أن يحملك ظنّك على اليأس وهو حال الضّعفاء القانطين، الذين خسروا التّحدّي رغم أنّ الله ضمن لهم إمكان الولادة من جديد بما أخبر به النبي ﷺ من ديمومة التّوبة في قوله: «لا تنقطع التّوبة حتّى تنقطع الهجرة، ولا تنقطع الهجرة حتّى تطلع الشّمس من مغربها» (أحمد)، وبما ضمنه من وجود الدّواء لكل داء هو خالقه عدا الموت، إذ «لكلّ داء دواء» (أحمد)، لذلك أزل الغبار...

أزل الغبار عمّا كدّر قلبك وغطّى فُؤادك فمنعك نقاءه وحرمك صفوه، واعلم أنّك تبدأ من اللاشيء، بل من الشّيء البغيض تُزيله حتّى تصل قلبك فتملأه، أمّا الآن فأزل الرّدم الكثيف ولا تبتئس بما ستجد، فإنّما هو صنيع أعمالك، وهو تراكمات زلاّتك وآثامك، فلا تستغربنّ طول معالجته واستجلب لذلك عُدّة الصّابرين فليس شيء أقسى على القسوة من صبر المُريدين وعزيمة التّائبين.

ستبدأ من اللاشعور، تلك المرحلة التي وصلت إليها ومنها تبدأ، مرحلة ستُغيّر فيها نمط حياتك وقد تكثر فيها صلواتك وطاعاتك ولكنّك لن تشعر بشيء غالباً، ولا غرابة فليس للقلب طريق يُوصل أعمالك إليه لّما غشيه صديد الإثم، ولكنّك في الحقيقة



مُؤثّر لا محالة، فلا تستطيع أن تصل إلى آخر ذرّة تُراب تُزيلها لتصل الماء لولا ما أزلته ممّا كان فوقها، فلا فضل لها إلاّ أنّها مُلامسة للمنشود وبها يصافح الإنسان المحبوب المطلوب، وإلاّ فما كنت لتصل إليها لولا النّبش الذي لا يُعطيك أثراً تراه. هكذا النّبش في مرحلة اللاشعور، طاعات وذكر وتوبة وقراءة للقرآن لا تُعطيك الوصال ولكنّها تُعَجّله وتحفر بين صخور القسوة لتُحرّر القلب.

فلا يحملنّك استعجال الحلاوة المفقودة على ترك السّعي فليس ما أوصلك إلى القسوة يسيراً حتّى تطلب يُسر إزالته، وانتظر أن تُكوى بنار الشّوق إلى سالف العهد، أين مُتعة المعصية ونداء الذّكريات وسلطة الشّهوات ومنفذ النّزوات وعبادة الهوى، فلا تتراجع وجاهد نفسك جهاداً كبيراً.

هنا ستحتاج إلى إجراء عمليّ مُلحّ، هِجران محيط المعصية، تلك البيئة التي تُذكّرك بحلاوة ما تجترحه في حقّ الله، فتُبقيك حبيسها وتَشُدّك بأغلال الذّكريات فلا تدعك حتّى تضمن بقاءك، فاحذر الأشخاص والأماكن والكتابات والمواقع والرّسائل التي كوّنت في السّابق مُحيط قسوتك، حتّى الصّورة العاديّة التي تُوحي لك بموقف أزلها. ستشعر -وأنت تعتزل هذا المحيط- كأنّك سمكة حُرمت ماءها، ولكن عزّي نفسك بأنّك غادرت مُحيط الله وتأقلمت مع غيره رغم بعده، فليست العودة أعسر، واعلم أنّها نصيحة رسول الله المُضمّنة في قصّة ذلك الرّجل من بني إسرائيل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا فلمّا سأل العابد عن توبته منعها فقتله وكمّل به المائة،



ثُمّ سأل عالماً فأقرّها ونصحه بتغيير المكان حتّى لا يُذكّره النّاس بماضيه، ولا يُعسّرون عليه التّوبة بالنّفور منه وهجره وإلصاقه بما كان ناسيه، وحتّى يعرض عليه المُحيط الجديد ما يُحفّزه على السّعي والبقاء فيدعوه الخير ويُناديه (متّفق عليه).

ثمّ احرص أن تُدمن العبادة، فإن عظم عليك مُداومتها بحبّ وشوق، فارتد قناع العاشقين واقتفي صنيع المُدمنين وتشبّه بهم حتّى يمسّك شيء من تعلّقهم، وهو آتيك لا محالة، وانتصح بنصيحة نبيّك مُحمّد ﷺ لمّا قال: «إن أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين وامسح برأس اليتيم» (أحمد) ففيهما تذكير بنعمة الله عليك وغرس لبذرة حبّ المُنعم فيك، وبهما تدعو الرّحمة المُلغاة فيك، وما خفي من ترابط لين القلوب والإحسان إلى أهل البلاء لا يعلمه إلاّ الله، ولكنّه حتميّ لا يتخلّف بإذنه سبحانه وتعالى.

واستحضر أنّه ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرّعد: 28) فـ«لا يزال لسانك رطباً بذكر الله» (أحمد) لكي لا تكون لك ﴿مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه: 124)، وليكن للسانك نصيب من سعي الوصال، فهو -على صغر جِرمه- عظيم النّفع كثير الأجر وفير النّعم بابٌ للخيرات وممرٌّ سالك للقلوب، وما تلبّس اللّسان بلباس الطّائعين حتّى يؤثّر على القلب فيدفعه إلى النّظر ويحرّك فيه الحنين إلى تقلّبات الأرواح في ذمّة الله، فلا تُغفل هذا المدخل، واحرص أن يكون الذّكر بتفكّر، فإن استعصى عليك فأدم الذّكر و﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ (الطّلاق: 7).



وأنهك البعد بإكثار النّوافل، فبها تُطوى المسافات وتُجنى الحسنات وتتمثّل أمر الله فيك حتى قال سبحانه وتعالى: «لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» (البخاري).

وعليك بالقرآن فإنّ اللهَ ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (الزّمر: 23)، وبه تكسر جليد القلب وجمود الرّوح وإعراض الفؤاد، ثمّ عزّز قربك بالحفاظ على صلتك، الصّلاة، الوصال الواجب في كلّ يوم وليل، العبادة التي ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ (العنكبوت: 45)، الاتّصال الدّائم الذي تشكو عبره لله ما أقضّ مضجعك وأنهك قُوّتك، والذّكرى التي تستفيد منها ولو دخلتها خالي القلب بعيد الرّوح: تذكّرك بالله بما تقرأه من القرآن وما تصنعه من حركات الخضوع وما تُتيحه لك من القرب والسّكينة ومُقاطعة كلاليب الدّنيا ومُؤثّراتها، فليس مكان تجد فيه ما تجد في الصّلاة، وليست عبادة تفرض عليك الوصال في كلّ يومك مثلها، فلا تُغفلنّها، ولا تخسرنّ جودها ودُرّها.

فإنّ استوعبت ما سبق، وظننت فيه الكفاية، فلا تترك عقد الوصال حتّى تُلحق الدّعاء، فإنّه أعظم الأسباب وأكثرها تركاً منّا لمّاَ غرّتنا المادّيّة فأعرضنا عمّا كشفه الله لنا من أسبابه القطعيّة، فتسلّح

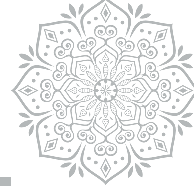


بالدّعاء وأكثر المُناجاة واشك إلى الله صغير الحوادث قبل كبيرها، ثمّ انتظر أثر ذلك فيك، وإجابة دعائك في أقداره سبحانه وتعالى.

ثمّ أحسن الظنّ بالله وتيقّن توفيقه لك وعدله فيك ورحمته بك وانتظر انقشاع الظّلم وزوال الغبار وحياة القلوب...





القرار...

كثيراً ما كُنت أستغرب ما يظنّه الكثيرون مدحاً فيُصيّرونه دليلا على موقف، ويتغافلون حاجته هو ذاته إلى دليل، وأمثّل بعبارة بعضهم «أنا ثابت على موقفي منذ كذا سنة»، ظانّا أنّ مُجرّد الثّبات يُصيّر الموقف حقّاً، أو يُصيّر القائل قويّ الشّخصيّة مُحصّن الفكر عن التّأثر، والحال أنّ هذا الثّبات ذاته ليس في كُلّ أحواله ممدوحاً، بل لا أغالي إذا قلت أنّ مُطلق الثّبات مذموم في الأصل حتّى تدلّ قرينة على أحقّيّته، فهو سمة الرّاكدين وعلامة المُقترين الجامدين وآية المُتَعَصّبين المُنغلقين، فمن الذي لا تُغيّره السنين وتفعل فيه المواقف فعلتها؟ ومن الذي لا تنفعه تجربة وكيانه مجموعة تجارب؟ ومن الذي لا يتأثّر بتوجّه المجتمع وقصص النّجاح وثقافة الحياة ونصائح السّابقين؟

لست أعني تفوّق التّغيّر على الثّبات ولا العكس، وإنما أرنو



إثبات رفع سلطة الدّليل عن الثّبات خاصّة، فليس الموقف حقاً لمجرّد ثباتك عليه، وليس الموقف باطلا لمجرّد تغيّره عندك.

وعليه كان لا بدّ من التّغيير في الحياة، التّغيير إلى الأفضل طبعاً، ولذلك يقول الله في هذه السنّة الكونيّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (الرّعد: 11)، وهو قرار التّحوّل من حال إلى حال، والطّبيعيّ الذي إذا تخلّف كان نقصاً، والأهمّ أنّه نقطة تعانق النّتيجة والبداية، نتيجة مرحلة سابقة وبداية مرحلة لاحقة.

هنا سنستحضر طبيعة الإنسان المُتَأثّرة بطبعها تبعاً للمحيط والتّجارب، وسنستجلب طبيعته البيولوجيّة المتفاوتة في نضجها وتعقّلها، ونتذكّر طبيعته الخطّاءة ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: 28)، لنحكم بحتميّة سنّة التّغيّر، ولكنّ كلّ الشّأن في ترشيد هذا القرار فحسب.

نعم التّغيير قرار وأعظم به من قرار، لا تنال الجنّة إلاّ به ولا تُجمع لك الدّنيا بدونه ولا تتجاوز الصعوبات إن أغفلته ولن تتقدّم إلى الله إلاّ وهو حمالتُك، وفتّش في حياتك ستجدها ملأى بالقرارات، ولكنّك أوتيت من قبل صحّتها أو ارتعاشها، لذلك سَنُسائل قرار التّغيير...

لماذا سأتغيّر؟ وهنا ستبحث في ماضيك مُتَمثّلا فيك قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (يوسف: 111) وستحدّد أمراضك ونزواتك وضعفك وآلامك التي ستجعلها



مُحَرّك قرارك، وابن على ما ستجده من نور بين الظّلم تُوسّع به آفاق الأمل، وكن مُتجرّداً في معرفتك ونزع قناعك وتشخيص حالك.

ثمّ سائل المستقبل بتحديد النّموذج المطلوب المولود من رحم تجاربك، والمُستنير بنور الله في الأرض، القرآن الكريم وهدي النّبيّ الأمين ﷺ، فبدونهما تزيغ وتكون من الهالكين، وهما دليلك إلى العودة والنّجاة.

الأهمّ من سؤال «لماذا سأتغيّر؟»: «كيف سأتغيّر؟»، وهنا اصدق في اعتمادك على الله وثق به وخذ بالأسباب فإنّ هذا توجيه ربّنا لنبيّه ﷺ ولنا ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: 159)، ثمّ غيّر ما يجب تغييره من محيطك وذكرياتك وسلوكاتك ونفسك فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرّعد: 11).

فإن استعصى عليك القرار فامض بدونه، نعم بدون قرار، فكم من إنسان انتهى مسار تغييره عند اتّخاذ القرار، وعُذّب بعبء القرار حتّى ترك الأمر واستسلم لحنين ماضي الأيّام وواقع الحال، ولعلّي أستحضر هنا ما كان من صنيع أبي لمّا أراد ترك التّدخين، وأرهقه القرار، فقرّر تركه وشرع في التّغيير بدون أخذ القرار أصلا، فكان يُمَنّي النّفس بالعودة حتّى لا يُكوى بألم الشّوق إليه، ثمّ لمّا تعوّد فراقه تركه، فإن أرهقك القرار فخُذه دون أن تأخذه...

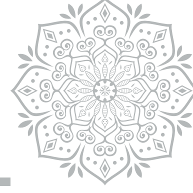
واحذر أن تكون راديكاليّاً حتّى لا تقبر قرارك وتُنهي آمالك وتَسأم نَفسُكَ، فأوغل برفق فإنّ «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن



قلّ» (متّفق عليه)، واصبر على ما ستجد فإنّ التّغيير ألم وراحة، ثمّ عزّز تقدّمك بالدّعاء فهو سلاحك ومددك.

فإن سألت عن بوصلة القرار، فاعلم أنّ المقصد الله، فكُلّ تغيير إليه كان مطلوباً، وأي ثبات عليه كان محموداً، ولا تمض إلى الأسوء تحت سطوة عبء الماضي ومُؤثّرات المحيط ومرهقات النّفس وردّات الفعل ومعاندة القدر، ثمّ احذر أن تظنّ عدم اتّخاذ القرار منطقة أمان تركن إليها، فإنّ عدم اتّخاذ القرار قرار، فاحرص أنْ تركن إلى الله فإنّ ما سواه مُتَغيّر لا يستقرّ على حال.

الآن وقد علمت وجهتك وساءلت ماضيك ومستقبلك وعرفت نفسك وأزلت قسوتك وعلمت قانون حياتك، ابدأ في فكّ أغلال السّجون التي تقبع فيها.



سجن الافتراضي...

لست مُضطراً لذكر منافع الوسائل الافتراضيّة المعاصرة فالأمر معلوم، ولست مُضطرّاً أيضاً لأعلمك أنّ الخطاب مُوجّه لمن رأى نفسه في شيء ممّا سيأتي من كلام... إذا فهمت هذا فلنبدأ حديثنا بتجربة يسيرة: افتح هاتفك ثُمّ ادخل موقع التّواصل الاجتماعيّ الأكثر استعمالا عندك فافتح الإعدادات وانظر المُدّة التي تُمضيها يوميّا، وقبل أن تستبق الحال وتُجهّز الرّد والمُبرّرات عِش الصّدمةَ أوّلاً... توقّف بعد أن تنظر إلى المُدّة وقُم بحساب المُدّة السّنويّة ثمّ مجمل ما ستُمضيه في الافتراضيّ تقديريّاً بقيّة عُمرك، هكذا لعلّك تُصدم بما يجعلك تُحسّ بالصّدمة الأولى، ثمّ قف هنا، لا تَمُرَّ حتّى تَفهم أنّ هذا الوقت جُزء من عُمرك، حياتك، حمالتك التي تسير بها إلى النّجاح في الدّنيا والنّجاة في الآخرة، لذلك قف عنده حتّى تُدرك موقفك، ثُمّ حاول أن تُقنع نفسك بأنّك مُطالب على الأقل



بمُساءلة هذا الوقت قبل أن تقف ذلك الموقف فيَسْأَلَكَ اللهَ «عن عُمُرِك فيمَا أفنَيتهُ» (الترّمذي)، هذا فقط الآن... لست أطلب منك أن تُحَاجج عن صنيعك أو أن تُبررّ حالك، ولا أطلب أيضاً أن تترك ولا مُجَرّد أن تُغيّر وضعك، فقط عش الصّدمة، فالواحد منّا لو حسب ما أمضاه من وقت في طلب العلم والصّلاة لخاف من أن يكون قد فرّط في أوقات كان يُمكن أن يملأهَا بمَا هُوَ أفضل، فما بالك بمواقع هي مرتع لكلّ شيء، قبيح وجميل، صالح وطالح، نفيس وبخس، حلال وحرام.

ثُمَّ قُم بتجربة أخرى وَأنتَ في مرحلة المُساءلة، تتصوّر فيها نفسك ميّتاً بعد أيّام معدودات، وانظر أثر ذلك فيك من خلال ما سيدافع ذهنك من أسئلة: هل أنا مُستَعِدّ؟ هل قُمت بمَا عَليّ؟ كيف يُمكن أن أتدارك؟ كيف سأتمّ باقي الأيّام؟ هل ستكفي الثّواني الباقية لتحصيل الجنّة؟ هل أملأ يومي بالصلوات أم بالصّدقات أم بقراءة القرآن أم بالعمل أم...؟ ستشعر بضيق الوقت أمام اتّساع أفق الخيرات وستتمنّى لو أنّك أحسنت فيما مضى ولعلّك تُلغي استعمالك لمواقع التّواصل الاجتماعي ولو جزئيّاً، المُهمّ أنّك ستُغيّر كثيراً فيك، وهنا لن أذكّرك بغيبيّة الموت وأن لو شاء الله لـ ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ (الأنعام: 44) فهذا ما يُصدّقه الواقع، لن أسوق هذا لبداهته ولكن انظر في فعل الرّكون فيك والاطمئنان إلى الدّنيا كيف أطال الأمد وقسّى القلب فأحال الخير على مُستقبل الزّمان ومنّى النّفس بالآمال حتّى ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ (التوبة: 67).



بصدمة الوقت المُهدور وصدمة الموت القريب المرهوب نغوص في اكتشاف سجن جديد البناء جميل الحال منمّق الكلام شنيع المآل، سجن تقمّص رداء المُفيد النّاصح، والخدوم الماتع ليملك حالك ويأسر كلامك ويُقيّد أفعالك ويُربّي سلوكاتك ويرسم خارطة حياتك ويعمّق آلامك ويقلب موازينك ويستخرج سيء خبيئتك بإرادتك ويُمحّض هواك في خدمة هواه، سجن يشدّ وثاق عقلك فتظنّك لمجرّد حرّيّة جسدك حُرّاً، فتُدرك جهلك بأخطر الحرّيّات، تلك التي تتزيّن بشيء من آثار الحرّيّة وتُبطن أشدّ أنماط التّسلط والدّكتاتوريّة، كامرأة بغيّ ضحيّة السّيدا تُمكّنك من نفسها حتّى إذا ظننت أنّك ملكتها وقدرت عليها فتمتّعت بها اكتشفت أنّها ملكتك وسجنتك بأغلال المرض فلا تحيد، هكذا بالضّبط .

لا شكّ أنّ الواقع قد تغيّر، وتغيّر معه السّلوك، ثمّ زاد تغيّره بقدوم مواقع التّواصل الاجتماعي التي فرضت نمطها وأوجبت على العالم تمثّل قوانين العيش فيها، نعم العيش فيها حياةً افتراضية مُوَازِيَةً للعالم الواقعيّ، لا شكّ أنّ هذا التّغيُّر طبيعيّ، ولكنّ الخطير في هذا التّغيّر اتّجاهه: أ للخير أم للشّرّ؟

هنا -وبمجرّد اختبار واقع هذه المواقع على ما فيها من خير ونفع- سنتيقّن ضررها بما أحدثته في الإنسان، ولا غرابة فهي الحياة التي تستقطب الكائن الحيّ لتُصيّره آليّاً ذكيّاً في أحسن الأحوال، ولعلّ خاصيّة الأفتار التي أطلقها فيسبوك مؤخّراً قدحت في ذهني هذه الفكرة، أن تفرض عليك مواقع التواصل قناعاً تعيش به عليها



ثمّ يصعب أن تنزعه فتقرّر أن تعيش عليها فقط أو أن تعيش بالقناع خارجها فتصدم برفض الواقع لاختلاف البيئات والقوانين فتبقى مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

لأجل هذا المعنى، يختار الكثيرون المواصلة في هذه المواقع لما وجدوه من ملجإ، الملجأ الافتراضيّ الذي يضيق فيه حضور الحقيقة، والفرصة التي تتستّر فيها على قبيح صنيعك فتتمثّل فعل الشيطان ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ (الأعراف: 27)، والرّكن الوحيد الذي قد يسدّ حاجة الاهتمام فيك فتدفع لأجلها نفسك.

إنّ خطورة ما ذكرت لا تكمن فقط في كونها تصنع شغفاً جديداً يملك وقتك، وإنّما الأشدّ أنّها تملكك فتُعوّض فوتك وتمسح دمعك وتأخذ بيدك حتّى تطمئنّ إليها فتلدغك بسمّ عسل، ظاهره يسرّ وباطنه يضرّ كالقبر، وخذ إليك مثالاً أنت فاعله غالباً، عندما تشعر بقلّة الاهتمام الواقعيّ وتعكّر مزاجك، قد تُنزل أحياناً منشوراً لا لأنّك تُريد أن تُنزله أو أنّك تنوي نفع النّاس به في الأصل، ولكنّ دافعك الأساسيّ تفاعل محيطك الافتراضيّ معك لسدّ شغف الاهتمام وفقط، حينها ستشعرُ بقيمتك فتسكت مُثبّطات النّفس ونكسات الواقع فلا تهتمّ بها أصلا، المشكلة أنّك صرت تستردّ قيمتك بما لا قيمة له وهو منشأ هدرها وبداية خُسرانها.

قد تسأل ما علاقة سجن الافتراضي بالله؟ وأقول هي محرّك للبعد عنه، تدفع إلى ضياع بوصلة الطّريق إليه فتضرب معاييرك،



ومتى ما كان دافعك في الحياة غير الله زدت عنه بعداً وكثرت في الحياة زلاّتك وضعف في الآخرة حظّك.

الأصل أن تسأل قبل العمل سؤالين: لمن أعمل؟ وكيف أعمل؟ والأصل أن تكون الإجابة أعمل لله وأتّبع في العمل ما يُرضي الله. هذا الأصل، أمّا هناك فالحال مُختلف، ستعمل لأجل المُتابعين بما يُرضي المُتَابعين، مناشيرك التي تُنزلها ستخضع إلى تقييم المُتابعين والمجتمع الافتراضي، فتجد نفسك تُساق بأهوائهم حتّى لا تُحرّر إلاّ ما يجني تفاعلاتهم، وهو معيار جديد في حياتك، رضا النّاس، قد يكون لك نصيب منه في الواقع لكنّه حتميّ ومتّسع في الافتراضيّ.

ستتوسّع عندك أيضا الهوّة بين الافتراضيّ والواقع فتعيش الحياة بقناع الافتراضيّ الذي صنعته، حتّى إنّك إذا لم تجد الحظوة التي وجدتها في مواقع التّواصل هجرت الواقع وتركته رغم أنّه الوحيد الذي يُعطيك قيمتك الحقيقيّة. وستبقى على هذا الحال إلى أن يصفعك الواقع الذي هجرت وقد لا تُفيق.

ثمّ -وأنت مولع بمحيطك الافتراضيّ- قد تتوغّل في الحياة بعينهم فَتُجَرَّدُ موقفك ورأيك لا لأنّك اقتنعت فتنازلت ولكن لأنّك ضعيف فاتّبعت. وكثير منّا قد يتأثّر بمجرّد تتابع المنشورات المتفقة في الرّأي رغم فساده، هنا المؤثّر هو التّواتر وليس قوّة الموقف، ثمّ تجدك تنساق دون أن تمحّص -ولو كان الموقف جُرماً في حقّ



الله- إمّا خوفاً من المعارضة أو لهشاشة نقديّة فيك، وعندها قد يفرض عليك حصار فكريّ بفعل صداقاتك يمنعك من سماع الرّأي المخالف ليُخَيَّلَ إِلَيْكَ أنّه القول الوحيد المعتبر لا أنّه القول الصّحيح فقط، حينها -وعندما تُصدم بالواقع- ستعلم ضيق تفكيرك ومدى حُمق ما فرضته على نفسك، قد يكون موقفك صحيحاً مرّة، ولكنّ الجرّة لن تسلم في كُلّ مرّة، فما تعلّمته من المنشورات ليس فقط ما حوته من آراء، وإنّما منهج التّفكير وطريقة تبنّي الموقف وقابليّتك للتّأثّر

بعد ذلك وأنت تنزل إلى الواقع، ستجدك تلبس كما يلبسون وتتكلّم كما يتكلّمون وتُدافع عمّن يدافعون ولو كانوا مثليين أو مرتدّين أو ظالمين، تحت شعارات أقنعك تواترها، وأنت مع هذا كُلّه عُرضة لاهتزاز ثقتك بنفسك، فما تراه ليس إلاّ حالهم في أفضل وضعيّاتهم، فتصدّق أنّ هذا حالهم بفعل التّواتر أيضا فتنتقص نفسك تارة وتسبّ القدر تارة وتلوم الله تارات، ثمّ تستسلم للوضع وتَطلب تغيير خطوتك أمام المعروض لتُشابهه فتعيش حياتهم واختياراتهم وآمالهم وأحلامهم عوض حياتك، وتكون مُجرّد نسخة مثلها الكثير، والأشدّ علينا ما يقود إلى حرق المراحل، فتجد الصّغير يطلب حياة الكبير ويتسرّع الوصول فَيُحرمه.

فإن عظم عليك إدراك خطوهم، ستلجأ إلى الحسد، فتزيد سجناً إلى سجنك، ولا يُفرحك إلاَّ ما تصل به إليهم، فتنسى نعم الله عليك وتكثر كآبتك لأنّك لن تصل إليهم، فتحصيل ما عند النّاس



ممتنع، ولو كان مُتاحاً لمنعه طمع البشر، إذ «لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لابْتَغَى وادِيًا ثالِثًا، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلَّا التُّرابُ، ويَتُوبُ اللهُ علَى مَن تابَ» (متّفق عليه).

وستخسر خصوصيّتك بكثرة المُتدخّلين فيك والمُؤثّرين عليك فتصير كلأ مُباحاً يرتع فيه من فتحت لهم الباب لقيادة بوصلة حياتك دون شعور منك، هنا كبّر على كيانك أربعاً واستقبل بكلّ بؤس وألم حياة الدُّمى وهي تُقلّب بلا إرادة بخطوات تنسب إليها وليست لها في الحقيقة، إنّما هي فعل المُتحكّمين المُتَخفّين، ولو كان لها شعور لصدّقت كما يُصدّق الأطفال أنّها تتحرّك وفقها، كذلك أنت...

أمّا الأسوء فتيسير المعصية حتّى تكون أقرب إليك من معصية الواقع، فتُبهرك إتاحتها، وتُؤثّر فيك كثرتها ويألفها قلبك ثمّ تجترحها، وخُذ إليك مثالا، التّنمر على النّاس واستباحة أعراضهم، أليس قُتل فينا الشّعور بفضاعة الفعل، ثمّ انتبه إلى ما يلي: إطلاق البصر وسبّ النّاس ونشر الإشاعة واتّهام النّاس وبثّ الفتنة ونشر المحرّمات والتّشجيع على الموبقات وعرض الشّبهات والتّحرش بالنّساء وكسر الخواطر والإفتاء بغير علم والتّقوّل على الله ممن يترخّص في غير الرّخصة والتّصدّر بغير حقّ ممّن قد يهدم ثقتك بدينه لهشاشة فيك، وغيرها مما قد تقضي حياتك ولا تُتاح لك فرصة اجتراحها في الواقع، أقول تتاح لك فرصة اجتراحها لا أن تقترفها أصلا.



ستعرّض نفسك لدعاء المظلومين فيُقسم ظهرك وتعمى بصيرتك بمجرّد منشور أو تعليق نقلته أنت تابع فيه تهتك ستراً أو تخوض في عرض أو تتهم زوراً، وتذكّر حال من أصابته دعوة سعد، لمّا «شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إلى عُمَرَ ﷺ، فَعَزَلَهُ، واسْتَعْمَلَ عليهم عَمَّارًا، فَشَكَوْا حتَّى ذَكَرُوا أنَّهُ لا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فأرْسَلَ إلَيْهِ، فَقالَ: يا أَبَا إسْحَاقَ إنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أنَّكَ لا تُحْسِنُ تُصَلِّي، قالَ أَبُو إسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا واللهِ فإنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بهِمْ صَلَاةَ رَسولِ اللهِ ﷺ ما أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ العِشَاءِ، فأرْكُدُ في الأُولَيَيْنِ وأُخِفُّ فَي الأُخْرَيَيْنِ، قالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بكَ يا أَبَا إسْحَاقَ، فأرْسَلَ معهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إلى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عنْه أَهْلَ الكُوفَةِ ولَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إلَّا سَأَلَ عنْه، ويُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له أُسَامَةُ بنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قالَ: أَمَّا إذْ نَشَدْتَنَا فإنَّ سَعْدًا كانَ لا يَسِيرُ بالسَّرِيَّةِ، ولَا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ، ولَا يَعْدِلُ في القَضِيَّةِ، قالَ سَعْدٌ: أَما واللهِ لَأَدْعُوَنَّ بثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إنْ كانَ عَبْدُكَ هذا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وسُمْعَةً، فأَطِلْ عُمْرَهُ، وأَطِلْ فَقْرَهُ، وعَرِّضْهُ بالفِتَنِ، وكانَ بَعْدُ إذَا سُئِلَ يقولُ: شيخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قالَ عبدُ المَلِكِ: فأنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ علَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وإنَّه لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي في الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ» (متّفق عليه).

هي هي، نفسها الإشاعة والبهتان ولكنّ الوسيلة مختلفة، ولعلّ سهولة المعصية أنستنا فضاعتها فأماتت في النّفس لومتها، وهنا تذكّر سهولة الطاعة التي تنال بها الدّرجات ولا تلم قرب المعصية



أن توبقك الدّركات. والأشدّ على القلب إلف المعصية بفعل كثرة فاعلها ثمّ إلفها بكثرة فعلها، هنا المُصيبة العظمى، ووقودها ستر الله وعفوه وصفحه، فيغرّنا ما أرخاه علينا حتّى نستزيد ممّا حرّمه ونأمن مكره ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: 99).

ستظنّ أنّ الأمر ينتهي هنا، وأبشّرك بما يسوء، مدرسة النّفاق التي تُخرّجك ناسياً لنفسك مُتمكّناً من أسلوب خيانة ذاتك ثمّ خيانة غيرك، حتّى إنّك قد تُخرج منك مكراً لا تعلمه فيك، وتتخفّى وراء رجل الظّلّ الذي صنعته نزواتك وشهواتك وآراء الافتراضيين أصدقائك فتَعيش غير حياتك وتُقحمه معك في واقعك فتُشوى بلهيب الانفصام شيّاً، وتقيّد بسلاسل النّفاق فلا تعيش كما تريد، وقد تُحسّ أنّك لم تعش، لأنّك تتنقّل بين شخصيّات أحالك عليها من استعبدوك، وأمّا العيش في كنف الله فيفرض أن تكون كما أنت، حتّى الرّسول القدوة ﷺ، له من خصائص الشّخصيّة وجبلّة الذّات ما رسّخ به هامشا من حرّيّة الاختيارات الشّخصيّة في نمط الحياة والعادات لكلّ إنسان ما لم تُخالف حدود الله.

سيعترضك أيضاً مُستَنقع التّفاهة، فاعلم بدايةً أنّ نقد التّفاهة لا يُبرّئك منها إن كُنت مُوَاقِعَهَا، وأنّ الانخراط فيها لمعرفتها ثُمّ نقدها وهم، وأنّ مُجرّد مشاهدتها دعمٌ لها وسبب لمزيد نشرها ثمّ احذر جاذبيّتها وتزيّنها بجلباب النّفع ورداء النّصح والتّعقّل والنّضج، ولو كانت مفضوحة لما كثر مُتّبعوها، فابتعد عنها واجلب معك معيار الله فإنّ فيه نجاتك وخلاصك منها، وتذكّر نصيحة



الحسن بن عليّ لمّا قال: «احرص على ما ينفعك» وإيّاك من أرض المُباح فلا تغترّ بحيادها فإنّها جسر للخير أو مسلك للشرّ، فامض بحذر ولا تتوسّع فيه فتُنهك به، أو حتّى تدمنه فيأتي على مجال الخير وإن لم يقدك إلى الخير، وأعظم بها من خسارة.

كُلّ ما مضى شديد، والأشدّ أن يجتمع، ولكن يبقى المنذر بالخراب في كلّ ما سبق الإدمان ولو على إحداها، ورحلته تبدأ من حجّة الاستفادة وقد تبدأ من الذّمّ أصلا، ثمّ تشرع في مرحلة التّجربة بزاوية المتعة دون وعي منك، فتدوينة تتابع إعجاباتها فنقاشات تفوزها فتعليق يمدحك فمنشورات تنتشر حتّى تصنع الشّهرة، وقبل أن تبتدرني بضيق شهرتك، اقبل منّي صدمة أنّ شعور الشّهرة واحد وإن اختلف نطاقه، وآثارها واحدة وإن تباين مقدارها، لذلك ستسعى إلى الحفاظ عليها بعشرة متابعين أو بمائة أو بمليون، ولن تختلف فرحتك بتعليق عن فرحتك بألف بعد مُدّة، لأنّ الفرحة واحدة والأسباب مختلفة، لذلك قد تتملّكك الشّهرة بفعل الإدمان فترُاك تُزيح ذاتك وتضرب على اختياراتك للحفاظ عليها، تماماً كما يفعل المشاهير، وحتّى من الدّعاة، فاحذر...

ثمّ احذر أن تُؤتى من باب الرّياء، وستوقفني مُجدّداً لتُقنعني بأنّك فعلتها لله، أو أنّك نشرتها لتُشجّع على التّقرّب إلى الله وقد يكون صحيحاً، ولكن افهم أوّلاً أنّي لست بحاجة لإقناعك ولا أنت بحاجة لإقناعي، فقط أقنع نفسك بجدوى ما تفعل، واختبر نشاطك أمام جمهورك الافتراضيّ وبدونه واستنتج الفرق ثُمّ احكم،



ولا تكن مُتساهلاً معك، فإنّ الخطب جلل، والمُهدّدة أعمَالُكَ، والعاقبة خسرانك، مع ما يُطبع على قلبك من تعلّق بمن تُرائيهم فتؤسر بهم وتُعدم سُبلك إلى الله.

كُلّنَا عُرضة لأن ينال منه الرّياء ولا عصمة بعد الأنبياء، ولكنّ الرّزيّة أن تنساق فتُصدّق إخلاصك المُلوّث بدرن الشّرك الخفيّ، تُسكت فيك ناصح الله فتفعل ما تفعل لتُمدح، هذه الحقيقة في كثير من الأحوال، ولكنّك تتجاهلها بحشد من مبرّرات أنت أعلم بفسادها، ويغرّك الجاه والاهتمام فيستعصي عليك هجرانها، ولعلّك لا تنشر الخير إلاّ لتمدح، وخذ إليك عياراً، أإذا خالفوك غضبت لله أم لنفسك؟ أجب لنفسك وأقنعها فلست بحاجة جوابك بقدر حاجتك له، ثمّ اسأل مُجدّداً أفيّ حُرقة تتبّع الإعجابات والتعليقات فتجدني أحصيها واحدة تلو الأخرى دون كلل أم أنّني لا أُبَالِي؟ أجب نفسك لأجل نفسك.

فإن سلمت من الرّياء، أو على الأقلّ أقنعت نفسك بذلك، فاعلم أنَّ أقلّ ما في نشر طاعاتك وعباداتك الحرمان من لذّة الخلوة بالله والابتعاد في العبادة، فإنّ في ذلك نقاءً للقلب وصفاء للذّهن وشحناً للهمم ومصالحة مع الله وتجديداً للإيمان وتقوية للإخلاص، وأعظم بها من ثمار، كيف لا وهي جزاء خبيئة بينك وبين الله، وما فُضّل الصّيام إلاّ لخفائه، وما استُحبّ قيام الليل إلاّ لصعوبة انكشافه، وما ظُلّل المُتصدّق المُخلص إلاّ لجهل شماله ما أنفقته يمينه، فإنّ هذا أعظم دليل على إخلاصك، دليل أمام نفسك أوّلا





وآخراً، فأمّا إثبات إخلاصك لله فليس يحتاجه وهو أعلم بك منك، وأمّا إثباته للنّاس فبدءاً قولهم فيك لا يعكس حقيقتك ثمّ ما دخلهم في حسابك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 88 – 89).

فكّر في فوتك مليّاً إذا كشفت السّتر عن عبادتك، ولننظر سويّاً في حالنا قبل الكشف وبعده، فإنّ من رام كشف حقيقة حاله نال مُناه إن صدق، وإيّاك أن تُسكت لومك بكثرة ما ترى من تهاون النّاس في تنزيل حجّهم وصدقاتهم وصلواتهم، فإنّهم لا يأمنون الحرمان من لذّة العبادة وشوق الطّاعة ومتعة التّقلّب في القرب من الله والشّعور بنعمه وآلائه.

لذلك أعد بناء العلاقة، نعم أعد بناءهَا!! لا أطلب منك أن تعتزلها فذلك عصيٌّ في وقتنا وإن استطعت فطُوبى لك، ولكن احرص على الأقل أن تبني علاقة منضبطة بمعيار الله، تنظر فيها بمنظار الله وتلتزم حُدُودَ الله، وحاول أن تجعلها في يدك لا أن تجعلك في يدهاَ، فكم من مستعمل ظنّ أنّ ما يعرض له من منشورات يحبّها ويهتمّ بها هي محض مصادفة، أبداً!! هو الذّكاء الاصطناعيّ الذي يبذل قُصارى الجُهْدِ ليتركك على الشّبكة، لكي لا يخسرك فيخسر رقماً أو قل مالاً، نعم هذه قيمتك عنده، فحاول أن تجعل هذه المواقع في يدك تقلّبها كما تشاء، تستعمل خيرها وتنبذ شرّها، فتأسرها ولا تأسرك.



واشرع في تجربة التّقليل من استعمالها شيئاً فشيئاً، وإن استطعت أن تفارقها مدّة فافعل، فإنّ الفراق دواء الإدمان ومُكفكف دمع العُشّاق شرط أن لا تترك أمل العودة بكثرة التّفكير فيه وإن عُدت، فإنّ الأمل يُؤجّل التّعلّق ولا يُنقص منه.

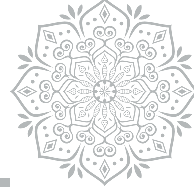
ثمّ لا أراني أجدُ أبلغ في بيان العلاقة الجديدة مع هذه المواقع ممّا قد بيّنته من فساد سجنها وسوء التّعلّق بها، فاقرأ ما سبق بعين الضّدّ وأنت تطلب التّغيير وتوكّل على الله واصدق ولن تخيب.











سجن الحبّ...

حديثنا عن الغامض الحارق، مُغدق الدّموع ومكفكفها، مقسّي القلوب ومرقّقها، مُفرح النّفوس ومحزنها، الجامع بين كُلّ نقيض والآسر لكلّ طليق ظنّ نفسه اكتفى بحرّيّة الجسد فأُتي من قبل الرّوح.

هكذا هو، طريق السّالكين وممرّ العاشقين ومطلب الطّائعين ومُنى العُصاة المُذنبين، يسعى إليه الكُلّ من دون ملل، ويُناشده الجميع بلا كلل، كأنّه فطرة بل هو كذلك، غريزة سلكهَا الله في الإنسان فصارت حاكمتهُ، تقوده إلى رُكنه الشديد فيعيش به.

لازلت أستغرب أثر هذا الشعور في الإنسان كُلّما طرقت أذني وقائع الأصحاب، إحداها الرّسوب في الدّراسة عمداً لتلحق المحبوبة وبذل الغالي والنّفيس لنيل وصالها ثمّ محاولة الانتحار لَّما صُدّ منها سَعيُهُ إليها، والغريب أنّها طلبته بعد حين وبذلت في ذلك الأغلى والأنفس فرفضها.



أخرى تُسبّ وتُشتم وتُهدر وتُخان ثُمّ تبقى على العهد دون إنكار بُكلّ ما في الأمر من هدر للذّات ونسيان لُمتعة الحياة، بل أظنّ متعتها وقتها هنالك، ثُمّ أرادها فتراجعت.

آخر يترك اختصاصه الذي يُحبّ، ومساره الذي سهر الليّالي وأفنى السّاعات في تحصيله لأجل من هوى، تنازل عن الكلّ فَصُدّ ثُمّ طلبته فأبى.

أيّ تناقض وأيّ عجب في هذا الشّعور، تغيّراته لا تنتهي وعجائبه لا تختفي وآثاره من عالم الأرواح تستقي، حتى تصير غامضة عن الإنسان عصيّة عن الأفهام كالرّوح، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: 85).

ستحير وأنت تطلب فهم الحُبّ، ولا أَبْلَغَ مِنْ أن يُعَرّف مثل هذا الشّعور باسمه، «الحبّ»، فقط اسمه، فكلٌّ يأتيه ويُحسّه، بل يعيشه ويُدركه، ولست في حاجة إلى أن تُفسّره، فإن أبيت إلاّ تقريبه فقل هو ذلك التّعلّق الذي يأنس به صاحبه بمحبوبه ويستوحش فراقه، أو قل هو السّفر إلى أرض الألم المرغوب والشّوق المطلوب للعيش بمطمع الوصال على الدّوام أو خوف الفراق الهدّام، أو إن شئت أيضاً قل هو العيش لأجل المحبوب.

فإن أعجزك ما سبق، فدع عنك كلام الكتب واكتف بما ينتابك ويملكك حين الحبّ، الانقياد اللاشعوريّ، واستلاب الوعي، عندما ترى العاديّ غريباً، وتصير عندك التّفاصيل أوضح الواضحات



فلا تغادر منها شيئاً، حتّى السّكون تتدبّره، وتشعر برهبة كالخوف وليست خوفاً، كأنّ أحدهم أفاض عليك ماء أو صعقك بالكهرباء، وتتسارع دقّات القلب لتعزف على إيقاع الوصال وترسل للخطوات إشارات مُتضادّة، أسير أم أتراجع؟ ثُمّ يمتلئ تفكيرك فلا تجد حيّزاً لأن تتذكّر نفسك أصلا، وتصير ترمقها في كلّ حرف من حروف الواعظ فيك، وتتذكّرها في أتفه تفاصيل مُحيطك، فتستبشر بحروف اسمها وتحبّ عبق بلادها وتميل إلى كُلّ ما في حياتها فتُصيّره مُؤشّرات السّعادة عندك. ذلك الحبّ.

والحبّ دافع العمل ومحرّك الحياة، يأسر الإنسان ويسجنه، فيقوده ويُنفذه، ويرفعه ويُوبقه، ويُنجيه ويُركسه، وهو معيار الاختيار، فليس شيء يسير فيه الإنسان برضاه إلاّ وَالحُبُّ مُحَدّدُهُ، يختار به العقل أعلى المحبوبين بحسّ التّشخيص وإقدام القلوب.

وأمّا عن الخصومة المُدَّعَاة بين القلب والعقل، فليست إلاّ توهّماً لفراق بين قسيمين لا يشتغل أحدهما دون الآخر، فما تظنّ أنّك اخترته لمنطق فيه إنّما هُوَ في الأصل سعي القلب بحبّ الرّكون إلى ذلك الخيار، وما ظننت أنّك سرت فيه بأمر القلب فهو في الحقيقة اختيار العقل بين ما رجّحَتْهُ القُلُوبُ.

هكذا الوضعُ، كُلّ خيارٍ يدخلُهُ القلب بشجاعة الإقدام عليه والعقل بترجيح المحبوبات بعضها على بعض، وما عدا ذلك فخصومة بين الحبّ والنّزوة العابرة، فما كان نتاج العقل والقلب



فهو الحبّ، فإن تخلّف أحدهما فهو القناع.. وكم من مهووس بطغيان العقل يبرّر سوء اختياراته بحجّة العقلانيّة قاتلا بذلك كُلّ شعور، وكم من مأسور الفؤاد يدفن الإدراك ويُسلّم المقود للهوى ظنّاً منه أنّ القائد القلب.

والحبّ مراتب أعلاها التّتيّم، مرتبة العبادة التي يكون فيها الإنسان مُنقاداً لمحبوبه مع كمال الخضوع والذّلّ، ودونها مراتب تُراوِحُ بين التّعلّق والصّبابة والغرام والعشق والشّوق، وليس في كُلّها الذّوبان مع المحبوب حتّى يصير الهوى، عكس العبادة، ولذلك يقول الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية: 23).

ولعلّ من أعظم ما يضرّ، الخلط بين هذه المراتب، وما أكثره عندنا، حتّى يظنّ المرء أنّهُ قد بلغ المنتهى في الحبّ والحال أنّه لم يُجاوز الإعجاب حتّى، وهو دون الحبّ، فما بالك بالمراتب الألصق ببعضها، وعواقب ذلك وخيمة، أن تعيش دور الغنيّ في فقرك لا يزيدك إلاّ فقراً، وكذا الحال هنا، ستعيش أعلى مراتب الحبّ رغم قصورك عنها فتُصوّر لنفسك أنّك تحبّ وليس الأمر كذلك، ثمّ تعيش الدّور بكلّ خصائصه حتّى إنّك قد تُؤوي إليك من لا تهوى أو تفعل لأجله ما لا يستحقّ أو تتألّم بما لا يجب فقط لأنّك ظننت أنّك تُحبّ.

وستهدر أيضا حُرمة الحبّ عندك بكثرة استعمال كلماته وتتشبّه بسلوكاته في غير موضعها، ثمّ إذا ما أصبت حبّاً حقيقيّاً شعرت ببرود بفعل إلف شبيهه -أي ما صوّرته لنفسك حبّاً-، وستتأثّر



هُنَا بسلطة المجتمع، وكثرة ما فيه من مُهدري قيمة الحبّ الذين صيّروها مداساً للجميع يُركّبونها على كُلّ موقف لان فيه القلب وإن لم يُجاوز الإعجاب.

وقبل أن ينقاد ذهنك لما تظنّه مُحتكراً الحبّ، فلنُوَضّح أوّلا أنّ هذا الشّعور ليس حكراً على العلاقة بين الجنسين، بل يطال كُلّ علاقة وكلّ حياة، فمن ضعف البصيرة أن نقصره على هذا المجال والأفق أوسع بكثير.

وأبعد ما في هذا الأفق حُبّ الله، الحبّ الذي لن تجد أرقى منه لتستقي، ولا أنفع منه فترتقي ولا أشمل منه فتكتفي ولا أعمق منه فتنتهي.

حُبّ لذاته لا لغيره، تنال به أعلى مراقي المُحبّين وأرقى مدارج السّالكين، الحبّ الوحيد الذي يأسرك فتتحرّر، فإن أسرك غيره تسجن وتتقيّد.

الحبّ الذي يضمن شخصيّتك وينحت كما تريد ذاتك ويحفظ إنسانيّتك ويعطيك التّحكّم.

الحبّ الذي يملّكك معيار الحياة: أن تنظر من منظار الله فتكون كما يريد، فتفوز ولا تحيد، حتى تنظر بعين الله وتسمع بسمعه وتبطش ببطشه وتمشي بسعيه، ولذلك قال سبحانه في الحديث القدسيّ: «ما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، ولا زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته صرت سمعه الذي



يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» (البخاري).

الحبّ الذي يُدخلك عالم التّلذذ بالقرب والأنس بالمناجاة والتبتّل بالعبادة والتّرقّي بالدّعاء.

الحبّ الذي يملكك فيُعتقك من أسر الدّنيا وقيود النّاس وأغلال الهوى فتتحرّر.

الحبّ الذي إذا غاب فشلت وإذا انتهى سُجنت وإذا ضعف وهنت وإذا زاد رقيت وإذا انمحق انمحقت.

الحبّ الذي ترى فيه الرّكن والمأوى، فتعبد من لا تراه كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فستعلم أنّه يراك.

الحبّ الذي يرفع عنك كلّ همّ ويُحَرّرُكَ من كلّ غمّ فتُحقّق سعي العقلاء ومطلب العارفين فتفوز في الدّنيا وتنجو في الآخرة.

الحبّ الذي إذا ما حلا في قلبك هان عندك كُلّ مطمع سواه، وإذا ما مسّك به الرّضا هان عندك كُلّ غضب أنت تخشاه، وإذا ما عمرت بينك وبينه سبحانه لم يضرّك خراب الوصال مع الأنام، ولذلك قال (ت) الشّاعر(ة):

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك الودّ فالكلّ هيّن ... كلّ الذي فوق التراب تراب
فيا ليت شربي من ودادك صافيا ... وشربي من ماء الفرات سراب



الحبّ الذي لا غدر فيه ولا تشوّه يعتريه، لا تلاعب بالمشاعر ولا كسراً للخواطر ولا استغلالاً للأحاسيس ولا خيانة للعهود ولا إعراض في التّواصل ولا منّاً في الإقبال ولا توجّساً في التّعامل ولا خوفاً من الفراق، فقط نقاء وصفاء، وبذل وعطاء، حبٌّ وحُبٌّ.

لذلك وجب أن يكون أوّل باب يُطرق في عالم الحبّ، الحبّ المركزيّ، الحبّ الضّامن الذي يُحيط حياتك بكُلّ كلاءة، فتسير بنوره، وتعمل بعياره حتّى تصل، فإنّ الإنسان كائنٌ مُحبٌّ بطبعه، لا يقبل الفراغ في الحبّ، ويأبى أن يخلو قلبه من المحبوب الأساسيّ الذي يقيّم كُلّ محبوب سواه، فإن اتّخذ الإنسان غير الله محبوباً لذاته سُجن به، امرأة كانت أو مالاً أو جاهاً أو شهرة أو غيرها.

ولعلّ الكثيرين يستغربون إعدامهم بمشنقة العشق والهوى، ولو عمّقوا النّظر لعلموا أنّ فراغاً من حضور الله فيهم سمح بتوغّل حُبّ مركزيّ مزاحم هو العشيق، فلا غرابة حينئذ أن تعبده فتسير بهواه ولو على حساب الله وهواك حتّى، ولذلك عُدّ كُلّ إنسان يولدُ كاتباً لديوان حياته، فمن تمسّك بحقّ الكتابة كان كما يشاء، ومن ترك الكتابة لغيره واكتفى بقراءة ما سطروه له فلن يكون.

عندها ستفهم لماذا لا ترى من الحياة إلاّ ألوانه، ولا يطيب لك من العيش إلاّ ما كان بجواره، وتتنعّم بناره ولا تُحسّ بخرابك، بل وترى في تنازلك ومحقك ذاتك خير قُربان تنحره لتنال وصاله، ولن



تُدرك أنّك قد أسرت به فعشت في عالمه بأذواقه وقوانينه إلاّ بعد أن تبتعد قليلا فترى أفضل.

ستبتدر ذهنك فكرة منع الحبّ عن غير الله، وهنا أعرني سمع قلبك لتعي ما يلي: «حُبّ الله يحملك على حبّ غيره، وحُبّ غيره يمنع عنك سواه». فحُبّ الله يفتح أمامك آفاق المحبّة بل ويوجبها فتكون تماماً لحُبّه سُبحانه، ولا مانع أن يكون حُبّ غيرِه عظيماً آسراً ما لم يُجاوز محبّة الله، وعيار ذلك الانقياد والإذعان والعمل.

هنا لا يُمكنني أن أمرّ دون أن أحدّث عمّن علّمنا الحبّ مع الوالدين فكان أبعد ما يكون في الهيام بُعْداً، حُبّ سيدي وأستاذي في الكلّيّة الدّكتور محمّد النّاصر الزّعايري خادم أمّه رُقيّة لأمّه، فعلى خلاف الحب الذي أفهمناه حبيب عبلة، ودندن حوله مجنون ليلى، وأرسى معالمه عاشق بثنة، وجلى مشاعره توبة، يأتي خادم أمه بدستور حب لا تخرج قوانينه عن شرع ربنا، ولا تتعارض بنوده مع فطرتنا، وتسعى أحكامه إلى تزيين حياتنا، فيعلمنا من خلاله كيف نجزي من أحسن إلينا، ونرد خير من له فضل علينا، ونبر بمن قاسمتنا طعامها لما كنا نطفة لا ينظر إلينا، وكلأتنا رغم قدرتها علينا، فخرجنا من بطنها إثر زفرات أنبأت بانفصال أجسادنا عنها، وتعلق القلوب بها، وانطلاق السعي إلى إرضائها.

كان شيخنا شديد الحب لأمه -رحمها الله-، قوي التعلق بها، حتى إنه كثيرا ما يقول «ابتليت بحبي لأمي»، وقد نذر حياته لبرها،



وعاهدها على دوام حبه لها إلى آخر أنفاس يلفظها، فعرف بها وعرفت به، حتى إن محيطه الاجتماعي كان يستغرب من هذا التعلق غير المعهود في زماننا.

وكان لا يناديها باسمها ولا بصفتها كأم، وإنما يتخير لها من السمات والصفات ما يبدي به مشاعره تجاهها مثل قوله باللغة الدارجة «للا أمي».

وكان يقبلها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وظل حريصا على الإحسان إليها والتماس رضاها فلم يتزوج في حياتها ولا بعد مماتها مخافة الانشغال عنها وتضييع حقوقها، وذلك رغم حرصها -كأي أم- على زواج ابنها وسعادته.

وقد يسر الله له أن يرافقها في الاعتمار رغم الظروف الصعبة، وحج معها إثر ذلك في ظروف أصعب.

ولم يتوقف بره بها حين وفاتها بل تواصل وهي تحت الأجداث، فكان يذهب إلى قبرها، قبل الغروب، كل يوم من أيام رمضان منذ وفاتها إلى الآن ويبقى هنالك إلى ما قبل صلاة العشاء، داعيا لها ومتحدثا معها حيث كان يجد في نفسه راحة وطمأنينة إذا خاطبها رغم علمه -حفظه الله- أن الأموات لا يجيبون، ولكنه سبيل سلكه ليبدد نار الشوق من خلاله.

وقد تنازل عما تركته له لا رفقا بغيره ولا شفقة عليهم ولا زهدا في المال، وإنما ترحما وصدقة عليها، فلم يعلم طريقا لبرها بعد موتها إلا



سلكه، وكان يكثر الدعاء لها حتى إنه يخصص الرّكعة لأولى في قيامه لشكر الله والثانية دعاء لأبويه والثالثة دعاء لأمه، والرابعة مناصفة بينه وبينها، وكثيرا ما يقول في سجوده «أمي أولا» فينسى نفسه.

وكان إذا حاضر جعل صورتها أمامه، وإذا كُرّم رافقته بسمتها في هاتفه، وإذا ذكرت صفة «خادم أمه رقية» تبسم وأشار برأسه أن هو ذاك.

وقد وعد شيخنا الكريم أمه -رحمها الله- أن يكتب اسمها مع اسمه في كل كتاب سيصدره، فذكّرته بذلك قبل موتها بأربعة أشهر، ولكن الله -عز وجل- قدر أن تتوفى قبل صدور أي كتاب، فأصاب الشيخ ضيق بسبب عدم وفائه بعهده وأخذ يبحث عما يحيي به ذكرها ويضاعف عن طريقه أجرها، فاهتدى إلى الاسترخاص من وزارة الدّاخليّة بجعل خادم أمّه رقيّة توقيعه الرّسميّ حتّى على جواز سفره، وحصل ما أراد، فكان لا يدعى باسمه مجردا عن خدمته لأمه إلا قليلا، ويعاب فاعل ذلك، حتى إن أوراق الامتحانات التي يشرف عليها توقّع بهذا التوقيع «خادم أمّه رُقيّة».

لك أن تتصوّر مرتبة الحُبّ هذه، تلك التي تُحلّق بك في سماء الهوى والتّعلّق والشّوق فيُصيبك ما يطرأ على المُتيّم من سعي لوصال في ثنايا القلب منزله.

هكذا هو القلب، إذا أحبّ هاجر، وإذا تعلّق أسر، وإذا اشتاق تلدّد، وإذا أغرم التصق، ولكن لا يجب أن يُجاوز حُدود الله في حُبّه،



فلا يطيع في معصية ولا يُغلبه على حُبّ الله فيُسجن ويهلك، حينها فقط يكون حُرّاً بحُبّه.

وفي المقابل، إذا فُقد حُبّ الله من المعادلة، اختلّ الميزان واضطربت المعايير، ومن ذلك ما تعلّق بالحبّ بين الجنسين قبل الزّواج.

ولنتجوّل معا في هذا العالم، عفواً أقصد السّجن، ما حاله؟ وكيف تكون فيه؟

ونبدأ من أساسه: الاشتغال عن الله، فلا يجتمع في القلب تيمان، أو قل حُبّان مركزيّان، وأعظم بها من رزيّة أن تفقد الوصال مع الملك الدّيّان فتهون عليه فينساك ونَفْسَكَ يُنْسِيكَ ويكلك إليها فيُرديك.

هنالك ستعذّب بما تظنّه غذاءك، فإنّ من تيّمهُ غير الله عُذّب به، ولذلك قال الشّاعر:

فما في الأرض أشقى من مُحبّ — وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا في كلّ حين — مخافة فرقة أو اشتياق

فيبكي إن نأوا شوقا إليهم — ويبكي إن دنوا حذر الفراق

فتسخن عينه عند الفراق — وتسخن عينه عند التّلاق

ستجد في هذا السجن ظلمة تُطفئ فيك نور الطّاعة وتنسيك وحشة المعصية، فإنّ همّك وصاله، فلا عليك إن هجرت غيره، ولو كان الله.



قد تشرب الخمر لتنساه...

قد تسرق لتعطيه...

قد تعقّ لتُرضيه...

قد تهجر لتُسلّيه...

قد تموت لتحييه...

قد تفشل لتُرقّيه...

قد تذلّ لتُعليه...

قد تتنازل لينظر إليك...

قد تفعل كُلّ هذا فقط لأجله، أمّا عن نفسك، أمّا عن الله، أمّا عن وحشة المعصية، أمّا عن درن الإثم، أمّا عن ظلمة القلب، فلا يهمّك ما دمت لا ترى أسوار سجنك حتّى تخرجه.

جدران هذا السجن سوداء عازلة، تمنع عنك الوصول إلى مصالح الدّنيا والآخرة، فتعزلك عن عالمك وتُوحي إليك أنّك تعيش، وهو صحيح، ولكنّك تعيش بغير القوانين، وتسعى بغير السّعي وتنظر بغير العين، تعيش لأجل غيرك لا لأجلك فهل هذا عيش؟ طبعا لا.

لن تشعر بكلّ خير تفقده وكُلّ سعي تخسره وكلّ فشل يلحقك وكلّ خيبة تُصيبك وأنت في هذا السّجن، لن تشعر لأنّك لم تعد تهتمّ بك، بل لم تعد تنظر إليك، لذلك.



هذه الجدران الصّلبة الخلفيّة هي سبب الرّزيّة فاحذرها، لن تراها ولكن ستجد أثرها في حياتك وتقلّباتك وعدم اهتمامك بأيّ شيء، ستنسى الأصحاب وتهجر الأحباب وتقصّر في حقّ الوالدين وقد تنسى الله، وأنت لا محالة مُدرك هذا ولو بعد حين، عندما تُحرّر من قبضة هذه الأسوار المانعة عنك كُلّ خير.

ستجد في هذا السجن خارطة مُشَوّهَة، مُضلّلة، خاطئة، تظنّ أنّها السبيل لفهم حالك وقتها والأصل أنها بئر عميقة يغرقك.

هذه الخارطة هي تشتّت ذهنك وفساده، فتَرَاكَ تُؤجّل كلّ ما يتعلّق بسوى محبوبك، فإن أردت التفكير فيه عزّ عليك ذلك فظننت أنّك ستقدر عليه لاحقاً ولن تستطيع، وتظلّ هكذا لا يقوم لك رأي ولا تُقبل على أمر لأنّك لا تستطيع، والأخطر أنّك تظنّ ما قمت به ترتيباً للأولويّات وسدّاً للمطالب والحاجيات، فيُضرب دونه كُلّ خيار تُرمّم به الحياة وتعرف به نفسك وتقبل على عالمك من خلاله.

سيكون نَفَسُكَ في هذا السّجن الألم، نعم الألم، تضجر إذا فقدته وتتنعّم به، حتّى إنّ الكثيرين يتلذّذون بألم الحبّ، ولو لم يكن لأحدثوه، ولذلك كانت العلاقة الخالية من الآلام والفراق والبعد غير مرغوب فيها وسرعان ما تفشل بخيانة أو فراق، لأنّ الممنوع وحده هو المرغوب هنا، فقط ما لا تطاله يدك هو الذين يرجوه قلبك ولو كان أسوأ ممّا أنت قادر عليه، وأمّا المُتاح فلا يسعى إليه



المُريدون، فأنت محتاج إلى صعوبات وآلام لتصنع معنى الحُبّ فيك وأنت في هذا السّجن.

هنا ستتمسّك بمن هجرك وستريد من أذلّك وستصفح عمّن هدرك وستطلب من تركك، ولو علمت أنّ ما تناله من الممنوع يصير هيّناً بفعل الإلف لأبطأت الخطو ولوجهّت القصد إلى من لا يبلى حُبّه ولا يحيد، ولكنّه السجن الذي يمنعك النّظر ويقتل البصيرة.

في هذا السّجن تجد باباً تظنّه منفذاً تلجه عند الطّوارئ، عندما تستعيد شعُورك بمحق ذاتك واستثمارك لمشاعرك في غير موقعها، ولكنّك ستفشل مُجدّداً عند معرفة المتاهة التي خلفه، وبيان ذلك أنّ هذا الباب هو المدخل لعلاقة أخرى بعد الحبيب فقط لتنساه بها، أي أنّك خرجت من سجنه لتدخل سجنه عبر غيره، فتظلم من توسّلت به لتنسى حبيبك، وتُعجزه بطلبك تمثّله لكلّ ما كان يفعل الأوّل، مشيته، كلامه، سيرته، عمله، مزاحه، عطفه، حتى سوءاته وتردّي أخلاقه.

نعم قد يبلغ بك حال التّشوّه المعياري أن تطلب القاسي المتكبّر فقط لأنّه كذلك، فتخسر موضوعيّتك وتنسى مُعطى الحقيقة في حياته لأنّك نزّلته منزلتها.

عُدّتك في هذا السّجن شرابٌ يُسكر القلوب، العمه: عمى القلب أقصد، كقوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾



(الحجر: 72)، وفيه تضطرب البوصلة ويفسد العقل ويُضرب على البصيرة ولا ترى ما ينفعها ولا تخشى ما يضرّها فيموت في الإنسان كُلّ شعور، ويربط حياته بمن أحبّ حتّى يصل الجنون، ويحق عليه قول الشّاعر:

قالو: جننت بمن تهوى فقلت لهم: العشق أعظم ممّا بالمجانين
العشق لا يستفيق الدّهر صاحبه وإنّما يصرع المجنون في الحين

وليس الجنون عنّا ببعيد فلا تأمنه، ولا تقل لي الجنون فقد العقل فإنّي أروم بين السّطور أين الحقيقة الرّائدة بين سفاسف الأمور.

لا تقل المجنون درويش بلدتنا المقذوف بالحجارة والموسوم بالمسكين، ليس حال العاشقين عنه ببعيد، إذ لماذا يضحك المجنون ويبكي ويحبّ وينتظر أمراً ولعلّه يطيل؟ لأنّ له قواعد عليها يسير وأصولاً بها يميّز ما إليه يميل وحياة يعلم جيّداً كيف تُؤتى وإلى أين تحيد.

فما الفرق بين هذا العالم وعالم المتيّمين؟ هو هو قوانين جديدة وقواعد أصيلة وحياة مُباينة لما نعيش، فلا تنفينّ عن العشاق جنوناً أنت كارهه ما دمت ترضى جنون المجانين، هذا جنون وهذا جنون، ولكنّ جنون الحبّ أقسى على الأنفس وأشدّ على القلوب لأنّك تُجنّ بعقل يدرك جنونك فيزيد آلامك.

ستجد في هذا السجن أيضاً باباً لم تُجرّبه ولا تجد إليه سبيلاً، ولكنّك ستملأ بخيالك ما وراءه وإن كُنت لم تر منه إلاّ ظاهره،



فتزيد في حُبّ السّجن رغم جهلك بكثير من خباياه، هكذا أغلب الحبّ من النّظرة الأولى، تراها فيُعجبك شكلها فتملأ ما تجهله عنها بما تُحبّ أن يكون لا بما هو كائن، وتصنع الملكة التي تروم فتعشق صورتها التي صنعت وتألف سجنها.

أحياناً نُصَدّق كذبنا لنُسكت غريزة فيناَ، هذا ما حصل، فاحذر أن تغرّك كثرة القصص عن الحبّ الأوّل فتظنّ كُلّ نظرة حبّاً، ولا تُكثر التّفكير وملء فراغات صورة من تجهل حاله، وأمهل نفسك مدّة حتى تعجبك أخرى فتُرقّق الأولى وتدرك أنّك لم تلج الحبّ أصلا، فضلا أن تجعله من أوّل نظرة.

ولا شكّ أنّ أوّل نظرة قد توردك جداول الحبّ بفعل غريب، ولكن ليس الحال كذلك دائماً، وإنّما الأمر يطلب من الصّفاء والتّوازن والتّفاعل ما يُرجح الوضع.

إلى هنا أظنّك اكتفيت بما يؤكّد بشاعة هذا السّجن وستطلب فكّ القيود، فخذ إليك نصيحة:

احرص على سلامة القلوب فإنّ الله وعدك فقال: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ (الأنفال: 70).

ثُمّ سُدّ منفذ العين فإنّها أصل البلاء وطريق الخلاء، ولا يُطلق أحدهم بصره في المُحرّمات إلاّ مات فيه الشّعور فلا يُحسّ بالحبّ، ولو أحس فلن يطول رضاه، وما قول الله ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ



أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إلاّ كشف من علاّم الغيوب لما به تنال الرّضا وترقى في الحُبّ وتحوز القناعة فلا تنظر إلى الغير.

ولعلّ أكثر ما يؤدّي بالنّاس إلى الخيانة كثرة إطلاق البصر فلا يستقرّ على حال، ولا يرضى بمآل ويسعى في طلب المجهول فلا يصل.

والعين طريق الزّنى، قد تُميت القلب بكثرة إطلاقها وتشتّت الذّهن فلا يطمئنّ صاحبها فاحرص على التّحكّم فيها وترشيدها.

ثمّ ابتعد عن البيئة الفاسدة، فإنّها تفعل فيك ما لا يخطر ببالك، وكم من ناكص على الأعقاب استسهل الحبّ بكثرة المُتحدّثين به حوله حتّى عدّ كُلّ إعجاب حُبّاً، واستسهل الفاحشة بكثرة فاعليها حتّى مات فيه الحريم.

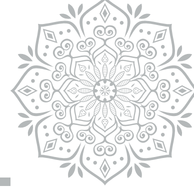
واحذر صنم المثاليّة الذي تروّج له المنصّات والمسلسلات والأفلام، سيُحدّثونكم على الرّجل السّويّ والفتاة المهذّبة، وعن العلاقة النّقيّة، وعن حبّ المثاليّة، فيرتفع سقف التّطلّعات عند المُشاهدين ويظنّون أنّ الواقع كذلك، فيُصفعون بحقيقته ويحصل ما يحصل، لذلك ترى الطّلاق قد كثر والفشل في العلاقة قد عمّ فطمّ فطمى فعمى في الدّيار.

كذلك الإباحيّة التي انتشرت، تُهيّء الإنسان فقط للتّعامل مع الجسد، الجنس فقط، فإذا ما ألفه بفعل العادة بحث عن الغير ولو تجاوز حُدودَ الله، ولعلّه اكتفى بالحرام لتشوّه صورة الزّواج عنده.



واعلم أنّ مداخل القلب الحواس، فمتى تحكّمت فيها نقّيت ما يرد عليها، ومتى أطلقت العنان تلوّث قلبك بكلّ درن.

وجماع ما سبق أن تعلم أنّ الحبّ طارق قلبك لا محالة، فإذا حجزت لحبّ الله المكان المركزيّ سلمت من سجن الحبّ وتنعّمت في حرّيّته، وإن مكّنت غير الله منه عُدمت به، ولا يسلم إلاّ من سلّمه الله.



سجن الجهل

لا بدّ أنك تذوّقت طعم العلم، أن لا تعلم ثمّ تعلم، نعم هذا ما يحصل بهذه البساطة في التّعبير، ولكنّ الحال أعمق، الفرحة التي ستعتريك والشوق للمواصلة الذي سيجتبيك والنّظرة للحياة التي ستعليك، كُلّها أمور تجتمع لتُمثّل العلم.

العلم الذي يفكّ قيودا تمنع عنك الحقيقة وتمحق الموضوعيّة وتميت جمالا لست تعلمه، ولذلك عُدّ العلم سمة البشر ومحرّك الحياة، وبه جاء أوّل أمر ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: 1)، إشارة من الله عزّ وجلّ إلى أنّ العلم روح الرّسالة وأساس الحياة.

وحتّى لا يُبنى على هذه الآية ما يهدم مقاصدها، دعنا نحدّد أوّلاً أنّ أعظم العلوم وأصلها: العلم بالله، وأنّ علماً لا يوصل إلى الله ولا يزيد في القرب منه أو يعارض أوامره عُدّ جهلاً ولو كانت سمته بيننا العلم، فالعلم بالله يُطلعك على الخلق وصفاته،



والكون ومكامنه، والحياة وأسرارها والعلاقات وآدابها والإنسان وغاياته.

فالإنسان إذا علم بالله حقّ العلم استقام حاله مع القدر وبه يسعى ويعمل، وحسن حاله مع الأخلاق وبها يتّزن معياره، وأسكت فيه مشكل الوجود وبالإجابة عنه يعرف موقعه وغاياته.

فالعلم بالله علم بعُدّة الحياة وحمولة بعد المات، بعد أن يكون علما بأصل الوجود وواجبه ومُبدعه، وهو كاف في بيان أهمّيّة هذا العلم.

وقد أودع فينا -سبحانه وتعالى- كواشف الفطرة تقودنا إليه، وليس فينا أحد إلاّ وقد تبدّت آثار الفطرة فيه، في خوف يعتريه فيبحث عن ملجأ أو فرح يشعر به فيبحث عن الغايات التي تُعطي لشعور الفرحة قيمة ومعنى تخرج به من جمود المادّة إلى أفق الرّوح، كُلّنا إذا وضع نفسه خصيماً للمؤمن فيه وساق حجج الإلحاد وجد فيه شعور الإيمان وإن عجز عن ردّ الشّبهات. ليست سلطة المجتمع كما يقولون، أو العقل الجمعيّ كما يدّعون، فقط هو النّداء الفطريّ فينا، نحن الإنسان، وهو ما عبّر عنه المؤرّخ اليوناني بلوتارك لمّا قال: «من الممكن أن نجد مدنا بلا أسوار أو ملوك أو ثروة أو آداب أو مسارح. ولكن لم يرَ الإنسان قط مدينة بلا معبد».

فالعلم بالله أشرف العلوم وأصلها، وبه تحقّق حرّيّتك من سجون الدّنيا والهوى، وتحصّل التّواضع الذي به تستزيد، هذا الأساس.



ثمّ إنّ إعلاء الإسلام لقيمة العلم لم تكن محض حشو بقدر ما كان هذا العلم مقصد الرّسالة، وسبباً للمفاضلة في الدّنيا والآخرة، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ (الزمر: 9) و﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ (المجادلة: 11)، وجعل «طلب العلم فريضة على كُلّ مسلم» (الحديث)، ولذلك لنا أن نساءل: لم كُلّ هذا الانحياز للعلم؟

الجواب بكلّ اختصار: لأنّ طريق الجهل مرير...

جهلك طريق لتكبّرك، وكُلّنا حصل معه أن تكبّر لّما ظنّ أنّه علم، ولذلك كان قولك «علمت» دليلا على جهلك، إذ لو أدركت سعة العلم لما حسبت نفسك تحيط به، فإذا ما ظننت نفسك بجهلك علمت، ترفّعت فأغلقت باب الانتفاع، ورددت النّصيحة وأكثرت الإنكار، ولذلك قيل «من قلّ علمه كثر إنكاره»، فكلّما ضاق أفق معرفتك، كثر الحكم الجازم عندك وخطّأت غيرك دون تورّع، ثمّ كثرت إطلاقاتك، فإذا ما سمعت من يكثر من «أفضل كتاب» و«أحسن نوع» و«أكثر تأثير» وغيرها فاعلم أنّ الظنّ الرّاجح فيه الجهل، وإلاّ لما جازف بإطلاق يتورّع عنه الكبار.

وأمّا عن روافد طريق الجهل، فدونك التّعصّب، داء عُضال يُزكّي العجب ويبني أسواراً تمنع عنك النّظر السّديد والوصول إلى نفسك حقّاً فضلا عن الحقيقة.

ستحسّ -وأنت بين أمواج التّعصّب- استعلاء لا نظير



له، وحقداً على المخالف قد لا تجده مع مجرم آذاك، وستسعى إلى الغوص في الانغلاق وتضيع البوصلة بفعل غشاوة أسدلت على البصيرة فبنت لك عالماً غير العالم، وسنّت قوانين ليست كالقوانين، لتكون نشازاً يراه الجميع إلاّ صانعه، فيكثر جدلك ويزيد بعدك ويكثر النّفور منك ويموت النّقد عندك، فحاول أن تفكّ أغلال الجهل...

نعم، فكّ أغلال الجهل بالعلم...

احرص على الدّعاء فإنّ العلم رزق، واتّخذ سبله فإنّه أعظم ما تنال به الدّنيا والآخرة، ولا تقل علمت فإنّ أمارة العلم الجهل، فكلّما زادت معرفتك بجهلك زاد علمك، فما العلم إلاّ كشف لجهلك.

وأخلص النّيّة فإنّها دافع النّجاح ووقود المواصلة، وطالع، نعم طالع...

اقرأ بنيّة رفع الجهالة عن نفسك ولا تقولنّ «أقرأ في أوقات الفراغ» فإنّها مقبرة العمل، والعلم لا يكون في فراغ، بل لا فراغ أصلا تنتظره حتّى تملأه، فإنّ ما تظنّه فراغاً هو مملوء بما يزاحم ما تريد فعله، فلا تُمت همّتك بإحالة العلم على أوقات الفراغ، فإنّك لو فعلت لن تقرأ، وكُلّنا نعلم.

حاول أن تدوّن الفوائد وأن تناقش ما عرفت وأن تعلّمه فإنّه أدعى للتّثبيت والحفظ واقرأ ما يوافق ميولك مما ينير ذهنك وينفعك في حياتك، واعلم أنّ قليلا دائماً خير من كثير منفصل

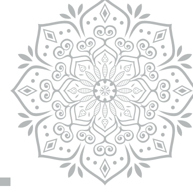


ومنقطع، واستفد من الكتب الصّوتيّة واقرأ في صفاء الذّهن حتّى لا تكون لساناً يتحرّك فحسب.

ولا تترك منفذاً للتّعلم إلاّ سلكته، والله يوفّقك ويسدّدك، فإنّ «منْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ علْمًا سهَّل الله لَه طَرِيقًا إِلَى الجنةِ» (رواه أبو داود والتّرمذي).





نور القرآن...

كنت أستغرب دائماً قول جبير بن مطعم: «كاد قلبي أن يطير» لمّا سمع قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35)... خصوصا ذاك التّعبير البديع عن تلك الحالة الرّاقية في مدارج التّفاعل الفطريّ مع الكلام الرّبّانيّ.

لا أكاد أقرأ في كتاب الله إلاّ وأستحضر هذه المقولة وأبحث لها عن مُبرّر في كلامه سبحانه.

نسقه، نظامه، بنيته، مواضيعه، حكمته، احتياجي له، تأثيره اللاماديّ فيّ، كُلّها مُبرّرات وجدتني قبل أن أجدها...

يكفي أن أستحضر أنّك أقرأ في كلام الله حتّى أحلّق في سماء الانبهار بفضله، ثمّ محاولة الإذعان لأمره، وبينهما استشعار وقع مصدر الكلام فيّ إذا ما قرأته، شعورٌ لم أهتد لوصفه بعد، ولكنّ من آثاره الشّوق والفضول والبحث عن السّبب في كُلّ كلمة، كأنّي



أقرأ في إصلاح فرض أجتازه أو أطالع في كلام صانعٍ لم أفهم جيّداً ما صنع، شيء كهذا، ذلك الاحترام والفضول وامتناع التّشكيك تجتمع لتُعطي شيئاً من صفاء الرّوح في مصافحة كلام الله.

لا يعني أنّي لا أختبر صحّته وأمنع عقلي عن ذلك، أبداً، ولكنّي أريد أن تعيش شعور الإيمان به حتّى تفهمه وتعيه ثمّ اختبر ما تشاء.

ثمّ وأنت تقرأ فيه ستجد كلاماً عنه يملّكك زاوية النّظر إليه: كأن يُعرّفك أنّه عظيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ (الحجر: 87) فتعطيه ما يستحقّ من الإجلال حتّى تستفيد، وأنّه محكم ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ (هود: 1) فتغوص فيه لتفكّ شفرته، وأنّه هدى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة: 185) فتقتفي نوره وتسلك هديه، وأنّه مُؤثّر ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر: 21) فتخشاه وتتحرّى أثره فيك وحولك، وأنّه أحسن الحديث ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الزّمر: 23) فترفعه وتُرفع به.

وإنّ من أصدق ما قيل فيه ممّا صحّ معناه وشُكّك في سنده، حديث للرّسول جاء فيه: «كِتَابُ الله، فِيهِ نَبَأُ مَا كان قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، وَمَنْ ابتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ



بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الألسنَة، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قالُوا: ﴿إنّا سَمِعْنَا قُرْآنَا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرّشْدِ فَآمَنّا بِهِ﴾، مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (التّرمذي).

ومن عظمته أنّه تحدّث عن كُلّ ما يُحتاج أن يعلم في السّير السّديد للنجاة في الدنيا والآخرة، ففيه حديث عن الكون وأسراره، والتّاريخ وقصصه، والتّشريع وأحكامه، والعقيدة وبيانها، والبراهين والتّحدّي، حتّى جمع ما لم يجمعه كتاب غيره.

وقد سطا على الحياة والإنسان، فتجدك وأنت تقرأه تنقاد وإن شكّكت، وتُعجب وإن تعجّبت، وتطمئنّ وإن ارتبت...كيف لا وهو يجول بك من أجدادك في التّاريخ إلى محيطك في الكون إلى النّظام في القانون إلى البراهين في العقل، ويُعرّفك عن بصمته فيك- سبحانه وتعالى-.

نعم تتعرّف إليك وأنت تقرأه...

لذلك أقول دائماً: «حاول أن تعرض نفسك على القرآن كأنّك المُخاطب به حتّى تفهم الخطاب، بعدها حاول أن تكون المُخاطَب حقاً ثمّ عشه»...

ستعرفك بتعريف الخالق نفسك لنفسك...

مسؤوليّتك ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطّور: 21).



عجزك ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (البقرة: 286).

جهلك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ (الإسراء: 85).

طغيانك ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ (العلق: 6).

ظلمك ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ (إبراهيم: 34).

جحودك ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ (العاديات: 6).

ضعفك ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النّساء: 28).

عقلك ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (الصّافّات: 138).

تكريمك ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلا﴾ (الإسراء: 70).

غموض روحك ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: 85).

الإعجاز فيك ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذّاريات: 21).

ثمّ قلّب بصرك ثانية في القرآن ستجده مدخلاً لفهم الحياة وفلسفتها وجماع ذلك قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ (الحديد: 20).

وفيه النّموذج الأمثل للمجتمع والاقتصاد والنّفس والثّقافة فاقرأه لتعيشه لا لتطالعه فحسب...



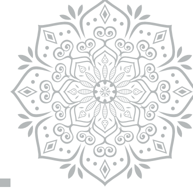
وحاول أن تتقدّم بالقرآن إلى الله، ولن يكون ذلك إلاّ بالتّدبّر: أن تفهم المعاني ثمّ تستشعر نفسك كائناً بها حيّا في طيّاتها، ثمّ تُنزّلها على واقعك وخبيئتك وحالك، واجتهد أن تقرأ لك، أن تبحث في القرآن ما تحتاجه ممّا قد لا يهتمّ به غيرك، واصدق في خطوك واستحضر أجر القراءة فإنّ من بركته تسهيل التّدبّر، واجعله صاحبك ولا تُودعه أوقات فراغك فإنّك تقتلك بذلك، فإن استشكل عليك معنى فابحث عن مُرشد، ولا تنسينّ الآية حتّى تجد ما تطيب له نفسك، فإنّ القرآن نُزّل ليُعاش، وإنّ معانيه جاءت واضحة من الملك الدّيّان، فإن غمض الأمر فاستيقن نقصك لا نقصه، ولا تغفل الدّعاء فإنّه مفتاح الخير كلّه.

واعلم -وأنت في قسوة القلب- أنّك قد تقرأه فلا تشعر به ولا تستفيد منه، حسب ظنّك، ولكنّك أمسكت الطّريق فلا تبرحنّ حتّى تُنقّي به ما جثا على قلبك من الدّرن فإنّه المطهّر للقلوب.

هذا النور هو الكاشف في رحلتك إلى العودة فلا تغشينّ حياتك الظّلمة بفقدانه...





في الختام...

إذا وصلت فاحمد الله واطلب الثّبات....

فإذا لم تصل فحاول أن تصل واطلب الثّبات...

فإذا كُنت هناك فإيّاك أن تُغفل طلب الثّبات...

فإذا وصلت وشعرت أنكّ ثابت فلا تغترّ واطلب الثّبات...

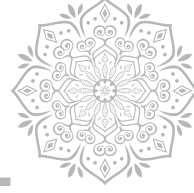
ثمّ اسأل الله الثّبات فإنّه رحلة تنجيك من أن تكون ممن سبق عليه الكتاب فضلّ، ومهما اتّخذت من الأسباب، فاعلم أنّ الأمر بيد الله فاطلبه منه ولا تغرّنّك الأسباب فتُعدم بهَا.











الفهرس

